

٥

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

الدكتور محمود حمدي زقزوق

بسم الله الرحمن الرحيم

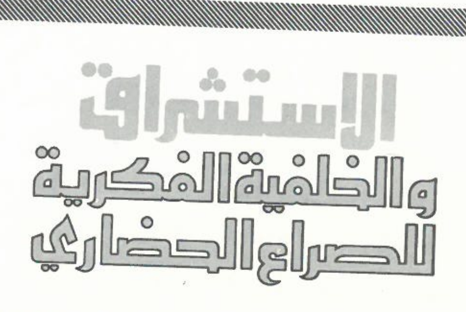
الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

الدكتور محمود حمدي زقزوق

الطبعة الأولى

كتاب الأمة

سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.



صفر الخير ١٤٠٤ هـ

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، القائل في محكم تنزيله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٧) ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ معلم الناس الخير .. المبعوث رحمة للعالمين وبعـد . . .

فهذا الكتاب الخامس في سلسلة « كتاب الأمة » التي اعتزمت رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية إصدارها مساهمة في تحقيق الوعي والحصانة الفكرية ، وإعادة بناء عالم الأفكار ، وتنقية الموارد الثقافية إلى جانب العطاء الصحفي ، ويمكن أن يكون العنوان « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري » ذا دلالة واضحة على موضوع الكتاب والقضايا التي عرض لها ، ذلك أن الاستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي كانت ولا تزال تقدم المدد للتنصير والاستعمار ، وتغذي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه ، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمد المنصِّرين والمستعمرين بالمواد يسوِّقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته ، وهدم عالم أفكاره ، وقد

جاء هذا الغزو الثقافي ثمرة لإخفاق الغزو العسكري وسقوطه ، ولتربية جيل ما بعد الاستعمار . . .

لقد تطورت الوسائل وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة ، ويكفي أن نقول : إن مراكز البحوث والدراسات سواء أكانت مراكز مستقلة أم أقساماً للدراسات الشرقية في الجامعات العلمية في الغرب ، وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية والمبتكرات العلمية والاختصاصات الدراسية تمثل الصورة الحديثة التي تطور إليها الاستشراق ، حيث تمكن أصحاب القرار السياسي من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً . . .

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات ، منها حوالي خمسين مركزاً مختصاً بالعالم الإسلامي ، ووظيفة هذه المراكز تتبع ورصد كل ما يجري في العالم ، ثم دراسته وتحليله مقارناً مع أصوله التاريخية ومنابعه العقائدية ، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار السياسي ، ومن ثم تُبنى على أساس ذلك الخططُ والاستراتيجيات ، وتحدد وسائلُ التنفيذ .

لقد أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والتحليل ، ولعل المختبرات التي تخضع لها القضاياالفكرية والدراسات الإنسانية أصبحت توازي تلك المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية ، إن لم تكن أكثر دقة ، حيث لا مجال للكسالى والنيام والعاجزين الأغبياء في عالم المجدين الأذكياء .

لقد اكتفينا بمواقف الرفض والإدانة للاستشراق والتنصير ، اكتفينا بالانتصار العاطفي للإسلام ، وخطبنا كثيراً ولا نزال في التحذير من الغارة على العالم الإسلامي القادمة من الشرق والغرب دون أن تكون عندنا القدرة على إنضاج بحث في هذا الموضوع ، أو إيجاد وسيلة صحيحة في المواجهة ، أو تحقيق البديل الصحيح للسيل الفكري والغزو الثقافي القادم من هناك . . . إلا من رحم الله من جهود فردية لا تفي بالغرض ، فإذا كنّا لا نزال في مرحلة العجز عن تمثل تراثنا بشكل صحيح حيث يحاول بعضنا الوقوف أمامه للتبرك والمفاخرة دون أن تكون لديه القدرة على العودة من خلاله إلى أصولنا الثقافية المتمثلة في الكتاب والسنة ، ويحاول آخرون القفز من فوقه ضاربين بعرض الحائط فُهوم علماء وجهود أجيال ، بدعوىٰ التناول المباشر ، دون امتلاك القدرة على ذلك ، فكيف يمكننا ، وهذا

واقعنا وموقعنا ، أن نواجه معركة الصراع الفكري ، ونقدم فيها شيئاً ؛ وإذا كان الكثير منا ما يزال يعيش على مائدة المستشرقين لفقر المكتبة الإسلامية للكثير من الموضوعات التي سُبقنا إليها ، وإذا كانت مناهج النقد والتحليل ، وقواعد التحقيق ، ووسائل قراءة المخطوطات من وضعهم ، كما أن الكثير من المخطوطات الإسلامية لم تر النور إلا بجهودهم على ما فيها ، فأنّى لنا الانتصار في معركة المواجهة العقائدية ؟!

ويمكن لنا إذا تجاوزنا جهود علمائنا الأقدمين في تدوين السنَّة ووضع ضوابط النقل الثقافي ، وقواعد الجرح والتعديل ، وتأصيل علم مصطلح الحديث الذي حفظ لنا السنَّة ، إلى جانب بعض الدراسات الجادة في هذا الموضوع ، فإننا لا نكاد نرىٰ شيئاً يذكر ، فقد اقتصر عمل معظم المشتغلين بالحديث والسنة عندنا على تحقيق بعض الأحاديث ، تضعيفاً أو تقوية ، لإثبات حكم فقهي أو إبطاله ، أو إثبات سنَّة ومواجهة بدعة ، وهذا العمل على أهميته يبقى جهداً فكرياً فردياً دون سويَّة الأمر المطلوب الذي يمكن من الانتفاع بكنوز التراث . . . وأين هذا من عمل المستشرقين في إعداد المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، كعمل ضخم وكدليل علمي لا يستغني عنه أي مشتغل بالحديث . . .

لقد نجحت العقلية الأوروبية بداية في السيطرة على مصادر التراث العربي الإسلامي ، وعن طريق الاستشراق والمستشرقين بادرت إلى التحقيق والتمحيص والطبع والنشر لمجموعة من أكبر وأهم المصادر التراثية ، وعلى الرغم من أن بعض الدراسات كانت تقترب من صفة النزاهة والحياد إلا أنها في النهاية وبكل المقاييس تبقى مظهراً من مظاهر الاحتواء الثقافي .

ولقد نجحت العقلية الأوروبية ، كما أسلفنا ، في فرض شكلية معينة من التحقيق والتقويم والنقد ، وأوجدت القدوة والأنموذج ، ويمكن القول : إن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث قد سارت على هذا النهج ولم تتجاوزه إلا في القليل النادر ، إلى درجة إيجاد ركائز ثقافية عربية معبرة عنها ومتبنية لوجهة نظرها ، ومدافعة عن المواقع الثقافية التي احتلتها ؛ حتى في الجامعات والمؤسسات العلمية لا يزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية التي اكتسبها المثقفون المسلمون من الجامعات الأوروبية . . .

ونستطيع القول : إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لا يزال يحتل الكثير من مواقعنا الثقافية ، وسوف لا يفيدنا في المواجهة مواقف الرفض والإدانة أو الهروب من المشكلة ، من هنا تأتي أهميـة هذا الكتاب في أنه لا يقتصر على تشخيص العلَّة ورصد آثارها فقط ، وإنما يتجاوز ذلك إلى تحديد الأسباب التي أوجدتها ، ومن ثم يصف العلاجويبين الخطة التي لا مناص من التزامها في معركتنا الفكرية التي تستهدف وجودنا حيث نكون أو لا نكون . . .

وميزة هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم أن له صفة الأكاديميـة ، فقد اعتمد مؤلفه المنهج العلمي الوثائقي في التناول ، وناقش المقدمات ، وعقد المقارنات ، وانتهى إلى النتائج ، وقدم الحلول اللازمة بعيداً عن الانفعال والارتجال ، لذلك نقول : إنها لا تكفي القراءة للكتاب بل لا بد من الدراسـة له . . .

ومن ميزاته أيضاً أنه يُمكن أن يصل بالمثقف بشكل عام ، والمثقف المسلم غير المتخصص بشكل خاص إلى حد الكفاية في هذا الموضوع حيث إن الاطلاع على هذا القدر من المعلومات عن الاستشراق ومناهج المستشرقين يشكل ضرورة لكل مسلم ، يبصِّره بالساحة الثقافية التي يتعامل معها ، والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . . . خاصة وأن مؤلفه الأخ الدكتور محمود حمدي زقزوق يمكن أن يعتبر إلى حد بعيد متخصصاً في هذه القضية الهامة ، بعد أن عَرَفَ المستشرقين واطلع على إنتاجهم عن قرب بطبيعة متابعة دراساته العليا في الغرب ، وأنه كان مقرراً للندوة التي دعت إليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة لمناقشة إعداد موسوعة الرد على المستشرقين ، وأعد التقرير عن المنهج العلمي الواجب اتباعه في إعداد هذه الموسوعة . . .

وتبقى حاجة المكتبة الإسلامية قائمة لمجموعة من الكتب التي تعرض للقضايا الفكرية التي يعاني منها عالم المسلمين ، وتصل إلى حد الكفاية بالنسبة للمسلم غير المتخصص على نحو هذا الكتاب بعيداً عن الانفعال والعاطفية وإثقال ذهنه بما ينفع وما لا ينفع . . والله نسأل أن يجزل مثوبته للأخ الدكتور محمود حمدي زقزوق وينفع به وهو حسبنا ونعم الوكيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

(آل عمران : ٦٤)

مقدمة

■■ إن مما لا جدال فيه أن الاستشراق له أثر كبير في العالم الغربي وفي العالم الإسلامي على السواء وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين . ففي العالم الغربي لم يعد في وسع أحد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً مرتبطاً به أن يتخلص من القيود التي فرضها الاستشراق على حرية الفكر أو الفعل في هذا المجال من حيث إن الاستشراق « يشكل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة . . . يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضوعاً للنقاش »[1] .

وفي عالمنا العربي الإسلامي المعاصر لا يكاد يجد المرء مجلة أو صحيفة أو كتاباً إلاّ وفيها ذكر أو إشارة إلى شيء عن الاستشراق أو يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة .

---

(١) إدوارد سعيد : الاستشراق ص ٣٩ ترجمة كمال ابو ديب ـ مؤسسة الابحاث العربية بيروت ١٩٨١م .

وهذا أمر ليس بمستغرب ذلك أن الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي ، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول : إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع . ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذا الصراع الحضاري . فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام ، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة .

ولا يزال الأوروبيون حتى اليوم يستقون معلوماتهم عن الإسلام من كتابات المختصين في هذا المجال من الأوروبيين ، وهؤلاء هم بطبيعة الحال من طبقة المستشرقين ، هذا فضلاً عما يكتبه بعض الأدباء أو الفلاسفة الأوروبيين . . . ولكن كتابة هذا الفريق الأخير لا تخرج في الغالب عن كونها مبنية على كتابات المستشرقين[٢] .

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي ، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد ، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً ويلعن كل من يشتغل به بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين .

والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد . ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة ، إننا لو فعلنا ذلك لكنّا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال . ولهذا فإنه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول .

(٢) انظر كتابنا الإسلام في الفكر الغربي ص ٩ ـ دار القلم بالكويت ١٩٨١م .

وهكذا نجد أن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بإلحاح ويتطلب منا وقفة تأملية جادة لبحثه ودراسة أبعاده وتأثيراته بالنسبة للإسلام والمسلمين .

وهناك من غير شك بعض الجهود العلمية القيمة في هذا الصدد من جانب بعض المسلمين ، وهي جهود لا يجوز التقليل من شأنها أو تجاهلها[٣] . ولسنا نقصد بهذا الكتاب أن يكون عوضاً عن هذه الدراسات . ولكن حسبنا هنا أن نركز على بعض النقاط الهامة التي نرجو من ورائها أن تكون حافزاً لنا على مواصلة التفكير والتأمل في أبعاد هذه القضية المتعددة الجوانب المتشعبة الأطراف ، من أجل الوصول إلى اتخاذ المواقف الصحيحة التي من شأنها أن تسير بنا إلى بلوغ الأهداف المرجوة .

وفي محاولتنا هنا لعرض هذا الموضوع سنتوخى أن نكون موضوعيين ، بعيدين عن اتخاذ أسلوب المواقف الجدلية الانفعالية ، لأن مثل هذه المواقف قليلة الجدوى وإن كان لها بعض التأثير فإنه تأثير وقتي سرعان ما يزول لعدم ارتكازه على أسس متينة . ومن أجل ذلك نريد أن نخاطب القارىء ونضع أمامه القضية بإيجابياتها وسلبياتها ، ونشركه في البحث عن الحلول الجادة .

وفي هذا الصدد نود أن نؤكد أن التزام الموضوعية هو دائمًا في صالح الإسلام . والأمر الذي لا ينبغي أن يغيب هنا عن الأذهان هو أن الإسلام بوصفه دين الله الحق لا يخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أيا كان مصدرها وأيا كان شأنها وانتشارها وقوتها طالما وجد هذا الدين من أتباعه من يستطيع فهمه فهمًا سليمًا ، وأدرك أهدافه ومراميه إدراكاً واعياً . فإذا توفر مثل هذا الفهم السليم والإدراك الواعي فسيتضح أنه لا توجد هناك تيارات فكرية يمكن أن تتحدى الإسلام ، بل العكس هو الصحيح وهو أن

(٣) سنشير في هوامش هذا الكتاب إلى بعض الاعمال .

الإسلام نفسه هو الذي يتحدى . أما إذا افتقد الإسلام لدى أتباعه الوعي السليم والفهم الصحيح لأصوله وغاياته فإن مواقف هؤلاء الأتباع ـ مهما حسنت النيَّات ـ لن تخرج عن مواقف الصديق الجاهل الذي هو أضر بالإسلام من العدو العاقل .

والكتاب الذي نقدمه اليوم إلى القارىء الكريم يحتوي على ثلاثة فصول : يشتمل الفصل الأول منها على مدخل تاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوره . أما الفصل الثاني ـ وهو الفصل الرئيس في هذا الكتاب ـ فإنه يتناول بالبحث مواقف المستشرقين بإيجابياتها وسلبياتها . وفي الفصل الثالث والأخير نتحدث عن موقفنا ـ نحن المسلمين ـ من الحركة الاستشراقية . . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ■■

د . محمود حمدي زقزوق

الفصل الأول

مدخل تاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوره

تمهيد . . .

ليس القصد من هذا المدخل التاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوره أن يكون عرضاً شاملاً يقف عند كل التفاصيل ويدقق في الجزئيات ويؤرخ لكل مرحلة من مراحل الاستشراق ، وإنما القصد منه هو فقط إلقاء نظرة عامة تبرز لنا بعض المعالم الرئيسة والخطوط العريضة في هذا الصدد ، نتعرف من خلالها على أهم العوامل التي ساعدت على نشأة الاستشراق وأهم المؤثرات التي كان لها دورها الفعال في تطور الحركة الاستشراقية ، وما صاحب ذلك كله من تطور في النظرة الغربية للإسلام والحضارة الإسلامية بوجه عام . وتوضيح الجوانب يعد بمثابة تمهيد ضروري لفهم الاتجاهات المختلفة للمواقف الاستشراقية إزاء الإسلام والمسلمين .

ولتحقيق هذا الغرض سنلقي أولاً نظرة على البدايات الأولى للاستشراق ومنطلقات هذه البدايات في القرون الوسطى ، ثم نلقي بعض الضوء على مدى صلة الاستشراق بالتبشير ، ونشير إلى بعض المحاولات الجادة التي ظهرت في أوروبا للتعرف على الإسلام ، ثم ننتقل إلى الحديث عن ازدهار الاستشراق في العصر الحديث ومظاهر هذا الازدهار ، ونتناول في هذا الصدد صلة الاستشراق بالاستعمار ودور اليهود في الحركة الاستشراقية . ونختم هذا الفصل بالحديث عن مستقبل الاستشراق .

البـــدايات الأولى . . .

الاستشـــراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي[1] . وكلمـة « مستشرق » بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله : أقصاه ووسطه وأدناه ، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه . ولكننا هنا لا نقصد هذا المفهوم الواسع ، ولا يعنينا هنا أن نتعرض لبحثه ، كما لا يعنينا أيضاً أن نتعرض للتغيرات الجغرافية والحضارية التي طرأت على مفهوم الشرق في مختلف العصور ، وإنما كل ما يعنينا هنا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام . وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق ، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين المعنيين .

ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق وإن كان بعض

(١) راجع الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ص ١١ . تأليف « رودي بارت » ، وترجمة د . مصطفى ماهر ـ القاهرة ١٩٦٧م .

الباحثين يشير إلى أن الغرب النصراني يؤرخ لبدء وجود « الاستشراق الرسمي » بصدور قرار مجمع « فيينا » الكنسي في عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية[2] . ولكن الإشارة هنا إلى « الاستشراق الكنسي » تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسمي قبل هذا التاريخ ، فضلاً عن أن هناك باحثين أوروبيين ـ كما سنذكر فيما يلي ـ لا يعتمدون التاريخ المشار إليه بداية للاستشراق . ولذلك تتجه المحاولات في هذا الصدد لا إلى تحديد سنة معينة لبداية الاستشراق ، وإنما إلى تحديد فترة زمنية معينة على وجه التقريب يمكن أن تعد بداية للاستشراق .

وليس هناك شك في أن الانتشار السريع للإسلام في المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصراني إلى هذا الدين . ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته . ومن بين العلماء النصارى الذين أظهروا في وقت مبكر اهتماماً بدراسة الإسلام ـ لا من أجل اعتناقه ، وإنما من أجل حماية إخوانهم النصارى منه ـ كان العالم النصراني يوحنا الدمشقي (٦٧٦ - ٧٤٩م) . ومن بين مصنفاته في هذا الصدد لإخوانه في الدين كتاب (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين)[3] .

ولكننا لا نستطيع أن نعد مثل هذه المحاولات بداية للاستشراق . فيوحنا الدمشقي كان رجلاً شرقياً عاش في ظل الدولة الأموية وخدم في القصر الأموي . ولهذا سنصرف النظر عن مثل هذه المحاولات من جانب النصارى الشرقيين ، ونقصر حديثنا على العلماء الغربيين .

وهنا نجد أيضاً أنه ليس هناك اتفاق على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق . فبعض الباحثين يذهب إلى القول بأن البدايات الأولى

(٢) انظر : الاستشــــراق : إدوارد سعيد ص ٨٠ .

(٣) انظر : المستشرقون لنجيب العقيقي ط ٤ ج ١ ص ٧٢ دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١م ، انظر أيضاً : تاريخ الفلسفة في الإسلام لديبور وترجمة د . أبو ريدة ص ٨ هامش .

للاستشراق ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، بينما يرى (رودي بارت[4] Rudi Paret) أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا تعود إلى القرن الثاني عشر الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ، كما ظهر أيضاً في القرن نفسه أول قاموس لاتيني عربي[5] . وما ذهب إليه بارت في هذا الصدد سبق أن عبر عنه كتاب المستشرق جوستاف دوجا (تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر) . الذي صدر في باريس في نهاية الستينات من القرن الماضي .

وهناك من الباحثين من يجعل بداية الاستشراق قبل ذلك بقرنين ، أي في القرن العاشر الميلادي . ولعل هذا هو السبب الذي أدى بنجيب العقيقي إلى أن يجعل كتابه عن المستشرقين - في أجزائه الثلاثة - سجلاً للاستشراق على مدى ألف عام ، بدءاً من الراهب الفرنسي جربر دي أورالياك (٩٤٠ - ١٠٠٣م) الذي قصد الأندلس ، وتتلمذ على أساتذتها في اشبيلية وقرطبة حتى أصبح أوسع علماء عصره في أوروبا ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك ، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوية في روما باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣)[6] .

وعلى الرغم من أن الاستشراق - بناء على ذلك - يمتد بجذوره إلى ما يقرب من ألف عام مضت فإن مفهوم « مستشرق » Orientalist لم يظهر في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر . فقد ظهر أولاً في انجلترا عام ١٧٧٩م وفي فرنسا عام ١٧٩٩م ، وأدرج مفهوم « الاستشراق » Orientalism في قاموس

(٤) مستشرق الماني معاصر وصاحب احدث ترجمة المانية لمعاني القرآن الكريم .
(٥) رودي بارت (في كتابه الآنف الذكر) ص ٩ .
(٦) المستشرقون للعقيقي ١/ ١١٠ .

الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م[7] .

ولكن المهم هنا ليس هو متى ظهر مفهوم « مستشرق » أو « استشراق » ، وإنما المهم هو متى بدأت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا ، ومتى بدأ الاشتغال بالإسلام والحضارة الإسلامية سواء بالقبول أو بالرفض . وهذا أمر موغل في القدم - كما رأينا - أما المصطلح ذاته فلا يعني شيئاً أكثر من إقرار أمر واقع ، وإطلاق وصف على الدراسات التي كانت قائمة بالفعل قبل ذلك بقرون عديدة ، بصرف النظر عن مدى علمية هذه الدراسات أو موضوعيتها ، فهذه مسألة أخرى قابلة للنقاش حتى فيما يتعلق بالدراسات الاستشراقية في العصر الحاضر .

وعلى أية حال فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والنصراني في الأندلس وصقلية ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته . ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم النصراني الغربي في القرون الوسطى والشرق الإسلامي على الصعيدين الديني والأيديولوجي[8] . فقد كان الإسلام كما يقول (ساذرن Southern) يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على المستويات كافة .

فباعتباره مشكلة عملية استدعى الأمر اتخاذ إجراءات معينة كالصليبية والدعوة إلى النصرانية والتبادل التجاري ، وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب بإلحاح العديد من الإجابات على العديد من الأسئلة في هذا الصدد ، وذلك

(٧) انظر الفصل الذي كتبه مكسيم رودنسون في : تراث الإسلام - تصنيف شاخت وبوزورث وترجمة د . محمد زهير السمهوري ج ١ ص ٧٨ - سلسلة عالم المعرفة بالكويت ١٩٧٨م .

(8) C. E. Bosworth: Orientalism and Orientalists (In: Arab Islamic Bibliography) 1977 Great Britain.

يقتضي معرفة الحقائق التي لم يكن من السهل معرفتها . وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها ، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها ، وصارت المشكلة أكثر تعقيداً بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية في عدم معرفتها خشية الدنس[9] .

اتجاهـــــان مختلفـــــان . . .

وقد نشط اللاهوتيون النصارىٰ في ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ ، وزعموا فيما زعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمداً ﷺ ليس إلاَّ صنمًا أو إلـه قبيلة أو شيطاناً . وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين . ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام ، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين في ذلك الزمان .

وهناك في هذا الصدد حكايات في وصف الإسلام مغرقة في الخيال وفي الضلال اخترعها خيال الكتاب في ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة : The Song of Roland وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عبَّاد أصنام ، أو انهم يعبدون آلهة ثلاثة هي (تيرفاجان Tervagan) ، و (محمد وأبوللو) . وقد اعترف أعلم المؤلفين المسؤولين عن هذا الأدب وهو (جيبير النوجنتي Guibert de Nogent) [ت ١١٢٤م] بأنه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط إلى آراء العامة ، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ، ثم قال مبرراً كتاباته غير العلمية عن الإسلام ونبيه :

(٩) ســـاذرن : نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى . ترجمة د . علي فهمي خشيم و د . صلاح الدين حسني ص ١٧ . دار مكتبة الفكر بطرابلس - ليبيا ١٩٧٥م .

« لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء » .

وقد أطلق ســـاذرن على هذه الفترة في كتابه (نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى) عنوان « عصـــر الجهالة » . وهو عصر كان أبعد ما يكون عن روح العلم والموضوعية . وفي ذلك يقول ســـاذرن :

« على أن الشيء الوحيد الذي يجب أن لا نتوقع وجوده في تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية ، أو البحث الإنساني الذي تميز به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة سنة الأخيرة »[10] .

وفي مقابل تلك الصورة البغيضة للإسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول إلى معرفة موضوعية في مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية .

يقول مكســـيم رودنســـون عن تلك الفترة :

« ولا يصادف المرء موقفاً موضوعياً إلا في مجال مختلف تماماً لا يمت إلى الدين الإسلامي إلا بصلة بعيدة ، وأعني العلم بأوسع معانيه[11] » .

وقد أخطأ « رودنســـون » هنا في جعله العلم لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة بعيدة . فقد كان الإسلام في حقيقة الأمر وراء كل إنجاز علمي حققه المسلمون في مختلف المجالات .

(١٠) المرجع السابق ص ١٥ ، ١٧ ، ٤٨ ، ٤٩ . انظر أيضاً تراث الإسلام ١/ ٣٤ ، وايضاً Bosworth في بحثه الذي سبقت الإشارة إليه .

(١١) تراث الإســـلام ١/ ٣٦ .

وبدءاً من عام ١١٣٠م كان العلماء النصـارى في أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم . وكان لرئيس أساقفة طليطلة وغيره الفضل في إخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية ، بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكي . وهذه الحركة التي قامت في أوروبا لترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية تشبه تلك الحركة التي قامت في العالم الإسلامي في عهد المأمون ومن سبقه لترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية . وتخدم أيضاً الأغراض نفسها التي قامت من أجلها حركة الترجمة في العالم الإسلامي والتي تتمثل في نشر العلم ورفع المستوى الثقافي من أجل خدمة الحياة الإنسانية وبناء الحضارة . ولكن هذا الاتصال العلمي العميق بحضارة الإسلام لم يكن له تأثير في تغيير النظرة الغربية للصورة العقيدية أو الإلهية أو التاريخية للإسلام .

وقد كانت هناك في القرن الثاني عشر أيضاً بعض المحاولات للتعرف على الإسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية « الإلحاديـة » . ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر [ت ١١٥٦م] رئيس رهبان كلوني بتشكيل جماعة من المترجمين في إسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامي . وقد كان بطرس الموقر وراء ظهور أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية في عام ١١٤٣م ، تلك الترجمة التي قام بها العالم الانجليزي (روبرت أوف كيتون Robert of Ketton)[١٢] .

وقد حاول بطرس الموقر - الذي كان يعتبر الإسلام هرطقة نصرانية - أن يجد مبررات للجهود التي يقوم بها - في مجال الترجمة من أجل التعرف على الإسلام - حتى يحظى هذا العمل بالقبول لدى إخوانه النصـارى فقال :

(١٢) المرجع السـابق ٣٧ - ٣٩ .

« إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة لأن العدو ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السلاح ، فإني أرد بأن في بلاد ملك عظيم تكون بعض الأشياء للدفاع وبعضها للزينة وبعضها لكليهما معاً . إن سليمان المسالم صنع الأسلحة للدفاع ولو أنها لم تكن ضرورية في زمانه ، وداود صنع الزينات للهيكل ، ولو انه لم تكن هناك وسائل لاستعمالها في عصره[١٣] . . . وكذلك الحال مع هذا العمل فإذا لم يكن بالإمكان تنصير المسلمين به ، فمن حق العالم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء في الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة »[١٤] .

ولم تجد « الموضوعيـة » التي كان يبحث عنها بطرس الموقر تجاوباً في ذلك الزمان على الرغم من أنها لم تكن موضوعية بالمعنى الصحيح . وإنما يمكن أن تعد « موضوعية موجهة » إن صح التعبير .

يقـول (رودي بارت) :

« حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام ، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع ، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعاً ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير . وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل ، وكانوا يتلقفون بنهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى

(١٣) هكذا ورد النص وهو مخالف لما ورد في القرآن الكريم من ان داود هو الذي كان يصنع الأسلحة ، وما هو معروف من ان سليمان هو الذي صنع الزينات للهيكل .

(١٤) انظر : ســاذرن ٥٦/٥٧ وتراث الإسلام ٣٨/١ .

دين الإسلام »(١٥) .

ويمكن القول بصفة عامة بأنه قد كان هناك في هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام . أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاهاً لاهوتياً متطرفاً في جدله العقيم ، ناظراً إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية . أما الاتجاه الثاني فقد كان نسبياً بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعية والعلمية ، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة . ولكن الاتجاه الخرافي ظل حياً حتى القرن السابع عشر وما بعده(١٦) . ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حياً في العصر الحاضر في كتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيه .

الثقافة العربية في قصر الامبراطور ..

وبين حين وآخر كانت تظهر هناك بعض شخصيات أوروبية مستنيرة لها وزنها تتخذ إزاء الإسلام بعض المواقف الإيجابية . ومن بين هؤلاء القلائل الذين كانوا يتبنون إزاء الإسلام موقفاً أقرب إلى الاعتدال نجد فريدريك الثاني حاكم صقلية الذي أصبح امبراطوراً لألمانيا عام ١٢١٥م . وقد كان فريدريك هذا يعرف العربية ويتشبه بالعرب في لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية . وقد كانت هذه العلوم تدرس بشغف في قصره في (بالرمو) وبذلك أصبحت في متناول اللاتينيين . وقد أهدى هذا الامبراطور وابنه (مانفرد) إلى جامعات بولونيا وباريس ترجمات لكتب

(١٥) انظر : رودي بارت ص ٩ ، ١٠ .
(١٦) انظر : Bosworth .

فلسفية مترجمة عن العربية . وفي عام ١٢٢٤م أسس الامبراطور جامعة نابولي وجعل منها أكاديمية لإدخال العلوم العربية إلى العالم الغربي(١٧) .

وقد كان نصيب هذا الامبراطور أن طرده البابا جريجوري التاسع Gregory IX من الكنيسة عام ١٢٣٩م . وقد كانت إحدى التهم التي وجهت إليه هي ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام(١٨) .

الاستشراق والتنصير ...

إذا كان الاستشراق لا يقوم إلا على أساس معرفة اللغات الشرقية التي هي الوسيلة للتعرف على عقائد وحضارات الشرق فإن التنصير يتفق مع الاستشراق في هذا الصدد ، ويحتم أيضاً معرفة لغات من يراد تنصيرهم ، وقد كان هناك اقتناع تام لدى دعاة التنصير في القرن الثالث عشر بضرورة تعلم لغات المسلمين ، إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتي ثمارها بنجاح . وقد كان هذا الاقتناع - الذي ترجم فيما بعد إلى خطة عمل - عاملاً هاماً بالنسبة لتطور الاستشراق . ولم يكن من السهل في ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الديني بصفة عامة ، فالدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق .

وقد كان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات المسلمين لغرض التنصير (روجر بيكون) [١٢١٤م - ١٢٩٤م] الذي كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم

(١٧) راجع : تاريخ الفلسفة في الإسلام لديبور ص ٤١٧ ، والفكر العربي ومركزه في التاريخ تاليف اوليري وترجمة إسماعيل البيطار ص ٢٣٧ وما بعدها - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٢م .
(١٨) تراث الإسلام ١/٤٨ .

المسيحي . ولبلوغ هذا الغرض لا بد من توفر شـروط ثلاثة هي :

١ - معرفة اللغات الضروريـة .

٢ - دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها من بعضها الآخر .

٣ - دراسـة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها(١٩) .

وقد شـارك بيكون في أفكاره (رايموند لول Raymond Lull) [١٢٣٥ - ١٣١٦م] الذي ولد في جزيرة ميورقة الاسبانية وتعلم العربية على يد عبد عربي ، وكانت له جهود كبيرة في إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن مختلفة . وكان الهدف من كل هذه الجهود في ذلك العصر وفي العصور التالية هو التنصير ، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصراني(٢٠) .

وقد صـادق مجمع « فينا » الكنسي في عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولول بشأن تعلم اللغات الإسلامية ، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية في خمس جامعات أوروبية هي جامعات باريس ، وأكسفورد ، وبولونيا ، وسلمنكا ، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية (Kurie) . وقدر لرايموند لول أن يعيش حتى يشهد تحقيق حلم طالما نادى به ، وكان يعتقد أن الوقت بذلك قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير ، وبذلك تزول العقبة الكبيرة التي تقف في سبيل تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية(٢١) .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية في نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التي اتسعت رقعتها حينذاك . وكان للروابط الاقتصادية لكل من اسبانيا وإيطاليا مع كل من تركية وسورية ومصر أثر كبير في دفع حركة الدراسات الاستشراقية .

(١٩) سـاذرن : ص ٧٦ .

(٢٠) رودي بارت : ص ٩ .

(21) Johann Fueck: Die arabischon Studien in Europa, Leipzig 1955, p.21-22.

وفي القرن السادس عشر الميلادي وما بعده أدت النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية إلى دراسات أكثر موضوعية من ذي قبل ، ومن ناحية أخرى شجعت البابوية الرومانية دراسات لغات الشرق من أجل مصلحة التنصير .

وفي عام ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانس في باريس وشغل هذا الكرسي جيوم بوستل Guillaume Postel [ت ١٥٨١م] الذي يعد أول المستشرقين الحقيقيين . وقد أسهم كثيراً في إثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية في أوروبا ، وجمع في الوقت نفسه وهو في الشرق مجموعة هامة من المخطوطات . وقد سار على نهجه تلميذه (جوزيف اسكاليجر Joseph Scaliger) [ت ١٦٠٩م] .

ولكن عمل بوستل لم يكن أبداً منقطع الصلة بجهود التنصير . صحيح أنه يمتدح ثراء الآداب العربية ، وبوجه خاص في المؤلفات الطبية والفلكية ويقـول :

« ليس هناك أحد يستطيع أن يرفض وسائل علاج الطب العربي ، فابن سينا يقول في صفحة واحدة أو صفحتين أكثر مما يقوله جالينوس في خمسة أو ستة مجلدات كبيرة » .

ولكن بوسـتل يذكِّر أيضاً بقرار مجمع « فينا » الكنسي الذي سبق أن أشرنا إليه . ويجمل قيمة معرفة اللغة العربية بقوله :

« . . . إنها تفيد بوصفها لغة عالمية في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس والأتراك والتتار والهنود ، وتحتوي على أدب ثري ، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس ، وأن ينقضهم بمعتقداتهم التي يعتقدونها . وعن طريق معرفة لغة واحدة (العربيـة) يستطيع المرء

أن يتعامل مع العالم كله » .

وقد كان يتباهى بأنه يستطيع عبور آسيا وبلوغ الصين دون مترجم[22] .

وفي عام ١٥٨٦م أصبح من السهل طباعة الكتب العربية في أوروبا عن طريق المطابع التي أقامها الكاردينال فريناند المديسي Ferdinand de Medici دوق تسكانيا الكبير Tuscany . وقد تم حينذاك طباعة كتب عربية مختلفة من بينها مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة[23] .

وفي القرن السابع عشر بدأ المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلامية ، وأنشئت كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة . ومما هو جدير بالذكر أن قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج عام ١٦٣٦م قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجاري والآخر تنصيري . فقد جاء في خطاب للمراجع الأكاديمية المسؤولة في جامعة كمبردج بتاريخ ٩ مايو (أيار) ١٦٣٦م إلى مؤسس هذا الكرسي ما يأتي :

« . . . ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلاً من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها ، ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات » .

ومن هذا يتضح أنه قد كان هناك تجاوب متبادل بين الاستشراق والتنصير إن لم يكن هناك تماثل في القصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي .

(٢٢) المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ - وإدوارد سعيد ص ٨١ .

(23) Johann Fueck: op.cit. p. 53 - 54. وأيضاً: Bosworth, op.cit.

ويمكن القول بأن التحالف بين الجانبين لا يزال مستمراً بشكل من الأشكال حتى العصر الحاضر[24] .

ومن بين الشخصيات التي كان لها أثر كبير في إرساء دعائم الدراسات العربية في أوروبا المستشرق (توماس إربنيوس Thomas Erpenius) [١٥٨٤ - ١٦٢٤م] الذي كان أول أستاذ يشغل كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن (١٦١٣م) . وقد استطاع عن طريق جهوده العلمية ومؤلفاته في النحو العربي أن يجعل لهولندا مكان الصدارة في الدراسات العربية في أوروبا لما يقرب من قرنين من الزمان .

أما موقفه من الإسلام فإنه على الرغم من أنه كان يرى أن القرآن يعد قمة من حيث اللغة إلا أنه لم يكن يرى فيه من حيث المضمون شيئاً أكثر من تقليد مضحك للكتاب المقدس . وكان رأيه في النبي ﷺ وتعاليمه متفقاً تماماً مع ذلك النفور الذي كان سائداً حينذاك في الغرب إزاء النبي العربي ﷺ وتعاليمه[25] .

محاولات جادة نحو فهم الإسلام . . .

وعلى الرغم من هذه الأهداف التنصيرية الواضحة والمعادية في طبيعتها للإسلام ، فقد شهدت نهاية القرن السابع عشر من ناحية أخرى اتجاهاً آخر مختلفاً استمر أيضاً في القرن الثامن عشر ، وقد نظر هذا الاتجاه إلى الإسلام

(٢٤) راجع بحثاً للاستاذ طيباوي بعنوان (المستشرقون الناطقون بالانجليزية) . وقد نشر البحث في مجلة العالم الإسلامي The Muslim World في يوليو (تموز) ١٩٦٣م وترجمه الدكتور فتحي عثمان إلى العربية . ونظراً لأهمية هذا البحث الحقه الدكتور محمد البهي بكتابه الفكر الإسلامي الحديث من ص ٥٨١ حتى ٦١٢ .

(25) Fueck, op.cit. p. 68/69.

نظرة موضوعية محايدة فيها شيء من التعاطف مع الإسلام . وقد شجع على ذلك ظهور النزعة العقلية الجديدة التي بدأت تسود أوروبا حينذاك ، والتي كانت في عمومها مخالفة للكنيسة .

وهكذا سنحت الفرصة أمام بعض العقلاء من الأوروبيين للوقوف في وجه الظلم والإجحاف الذي لقيه الإسلام في الغرب في القرون الوسطى ، وظهرت بعض المؤلفات العامة المعتدلة عن الإسلام والحضارة الإسلامية ، وحل محل الآراء التي تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت والتي تمثلت في وصف محمد ﷺ بأنه شيطان ، وفي وصف القرآن الكريم بأنه مزيج من اللغو الباطل - حل محلها آراء أخرى أقل عنفاً وأقرب إلى الاعتدال والإنصاف للإسلام والمسلمين .

ومن بين الأمثلة على ذلك (ريتشارد سيمون Richard Simon) ، فقد تناول في كتابه (التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم الشرق) - ١٦٨٤م - عادات وعقائد المسلمين في وضوح واتزان مستنداً في عرضه لها على مرجع لأحد علماء المسلمين ، مبدياً تقديره وإعجابه بالعادات الإسلامية . وقد اتهمه (أرنو Arnould) بأنه كان في حديثه عن الإسلام موضوعياً أكثر من اللازم ، فنصحه سيمون بأن يتأمل التعاليم الأخلاقية الرائعة للأخلاقيين الإسلاميين .

وكان الفيلسوف (بيير بايل Pierre Bayle) من المعجبين بالتسامح الإسلامي ، وقد ظهر أثر ذلك في عرضه لحياة محمد ﷺ في قاموسه التاريخي والنقدي الذي ظهرت طبعته الأولى في روتردام عام ١٦٩٧م . أما (سيمون أوكلي Simon Ockley) [١٦٧٨ - ١٧٢٠م] فإن كتابه تاريخ السراسنة (أي العرب المسلمين) يعد نسبياً غير متحيز ، وقد نجد في هذا الكتاب الشرق

الإسلامي ورفعه فوق الغرب[٢٦] .

وتعد هذه الأمثلة المشار إليها أمثلة رائدة في الاتجاه الجديد نحو الفهم الصحيح للإسلام . أما أول المحاولات العلمية الجادة للتعرف على الإسلام فقد كانت على يد (هادريان ريلاند Hadrian Reland) [ت ١٧١٨م] أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولاندا . فقد صدر كتاب باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان (الديانة المحمدية) في جزأين : عرض في أولهما العقيدة الإسلامية معتمداً على مصادر بالعربية واللاتينية . وفي الجزء الثاني قام بتصحيح الآراء الغربية التي كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الإسلام . وقد أثار الكتاب اهتماماً عظيماً لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائي للإسلام ، في حين أنه لم يكن يقصد إلا الوصول إلى فهم الدين الإسلامي فهماً صحيحاً ممهداً بذلك السبيل إلى محاربته من جانب النصرانية بطريقة أفضل من ذي قبل .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية أدرجت الكتاب في قائمة الكتب المحرم تداولها . وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والاسبانية . ويشير ريلاند في مقدمة الكتاب إلى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، إما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبيء عن قصد خبيث . وقد تعرض الإسلام إلى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى . ويقول ريلاند : (إن المرء يصح له حقاً أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت) . ولهذا يريد أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبث الناس ،

(٢٦) ولكن وصف اوكلي للنبي ﷺ بانه (رجل خبيث جداً وماكر ، وان ما كان يبديه من شمائل طيبة كانت مجرد امر ظاهري يخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع) - هذا الوصف أسقط المؤلف مرة اخرى في بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة . (انظر : تراث الإسلام ١/ ٦٤ - ٦٧ ، وايضاً Bosworth في المرجع السابق) .

وإنما كما يدرس حقيقة في مساجد المسلمين ومدارسهم . فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان في هذا العالم في أي عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء . وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين ، يصفها بأنها نظرية محمدية . . كما لو كان الأمر أنه لا يوجد في تعاليم محمد شيء صحيح ، وأن كل ما فيها فاسد . وإذا أبدى أحد رغبة صادقة في التعرف على الإسلام لا تقدم له إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات . ويضيف ريلاند قائلاً :

« . . . ينبغي على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمداً نفسه وهو يتحدث في لغته ، كما ينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن . فقد أعطى الله العقل لكل الناس . وقد كان في رأيي دائماً أن ذلك الدين الذي انتشر انتشاراً بعيداً في آسيا وافريقيا ، وفي أوروبا أيضاً ليس ديناً ماجناً أو ديناً سخيفاً كما يتخيل كثير من المسيحيين » .

وبعد ذلك يقول ريلانـــد :

« . . . صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد . ولكن ، أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغي للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟

إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أماناً وأشد قوة[٢٧] » .

(27) Gustav Pfannmueller: Handbuch der Islamliteratur, Berlin 1923, p. 63/64.

ونعتقد أن عبارات ريلانــد الأخيرة هذه لم تنجه من بطش الكنيسة التي لم تقتنع بهذه المبررات ، فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى يطلع عليها جمهور الناس .

وقد شهد القرن الثامن عشر أيضاً أنموذجاً آخر رائداً في عالم الاستشراق الألماني ممثلاً في (يوهان ج . رايسكه J.J. Reiske) [١٧١٦ - ١٧٧٤م] الذي كان واحداً من عباقرة علماء العربية في عصره ، وأول مستشرق ألماني جدير بالذكر ، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية في ألمانيا . ولكن عصره ومعاصريه تجاهلوه وحاربه رجال اللاهوت متهمينه بالزندقة ، ولعل ذلك يرجع إلى موقفه الإيجابي من الإسلام . . فقد امتدح الدين الإسلامي في كتاب له باللاتينية ، ورفض وصف النبي ﷺ بالكذب أو التضليل ، أو وصف دينه بأنه خرافات مضحكة - كما كان ذلك سائداً حينذاك - ، كما رفض تقسيم تاريخ العالم إلى تاريخ مقدس وتاريخ غير مقدس ، ووضع العالم الإسلامي في قلب التاريخ العالمي . وفوق ذلك عبر عن آرائه بأعظم قدر من الصراحة ، غير مكترث بكل العواقب المترتبة على ذلك . وقد جر عليه ذلك ويلات كثيرة ، وعاش طول حياته في ضائقة مالية ، ومات بائساً مسلولاً وهو في الثامنة والخمسين من عمره .

وقد قال عنـه (فـــوك) :

« لقد أصبح شهيد الأدب العربي ، وصارت حياته تاريخاً لتلك الآلام التي سجلها في مذكراته . . . وقد كان من المخجل أن أحداً من الرجال البارزين (في عصره) لم يعرف الأهمية الفائقـة لهذا الرجل العبقري الذي كان واحداً من أعظم علماء العربية »[٢٨] .

(28) Fueck, op.cit. p. 108, 117, 124.

ولكن هذه الأمثلة من المحاولات الجادة في التعرف على الإسلام عن قرب وبلا أحكام سابقة لم تستطع أن ترسخ في الفكر الأوروبي تياراً عاماً ، ولم تستطع بالتالي أن تقضي تماماً على الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأوروبيين بصفة عامة ، تلك الصورة التي رسختها القرون الوسطى في الأذهان والتي لا تزال آثارها عالقة بالعقول حتى اليوم . فقد بقيت الصورة في إطارها العام على مر العصور كما هي ، وإن حدث فيها بين الحين والحين - بفعل بعض الظروف - بعض التعديل في الظلال والألوان « والرتوش » الخفيفة . والدليل على ذلك هو أن صورة الإسلام في أذهان الأوروبيين لا تزال حتى اليوم صورة مشوهة بعيدة عن الحقيقة .

ولسنا ننكر أن الاستشراق في ذلك العصر بدأ يتخفف من أثقال اللاهوت وأن حدة الاتهامات ضد الإسلام قد خفت عن ذي قبل ، كما أعيد النظر في الاتهامات السابقة ، ولكن هذا الانفتاح الفكري كان في محصلته النهائية محدود الأثر ، وإن كان من وجهة نظر مكسيم رودنسون يمثل تحولاً كبيراً .

وفي هذا الصدد يقول :

« ... والواقع أن القرن الثامن عشر كان ينظر إلى الشرق الإسلامي نظرة أخوية متفهمة . وقد مكنت الفكرة القائلة بتساوي المواهب لدى جميع الناس - والتي ساعد على انتشارها تفاؤل يفيض بالحيوية كان هو الدين الحقيقي لذلك العصر - مكنت الناس من القيام بدراسة نقدية للتهم التي وجهتها العصور السابقة إلى العالم الإسلامي ... ففي عصر التنوير أصبح المسلمون يعتبرون أناساً مثل غيرهم ، وكثير منهم كانوا يفضلون على الأوروبيين »[٢٩] .

(٢٩) تراث الإسلام ١/ ٦٨ .

وإذا سلمنا بما يقوله رودنسون في هذا الصدد فإنه هو نفسه لا ينكر أن تلك النظرة التي يتحدث عنها هنا تحولت فيها بعد إلى نظرة أسوأ من ذي قبل ، وفي ذلك يقول :

« وفي القرن التاسع عشر كان الشرق الإسلامي لا يزال عدواً ولكنه عدو محكوم عليه بالهزيمة ، وكانت البلاد الشرقية أشبه بالشهود المنهارين لماض عريق . فقد كان المرء يستطيع أن يستمتع بترف امتداحهم في الوقت الذي كان فيه السياسيون ورجال الأعمال يفعلون كل ما في وسعهم للإسراع في انهيارهم . ولم يكن إمكان صحوهم ولحاقهم بالعصر الحديث يثير أية حماسة ، بل إنهم يفقدون في خلال عملية تحديثهم نكهة الغرابة التي كانت مبعث سحرهم »[٣٠] .

وقد أدى ذلك إلى تغيير في نظرة الغربي إلى الشرقي ، إذ أصبح الشرقي في نظر الغربي في القرن التاسع عشر - كما يقول رودنسون أيضاً - :

« ... مخلوقاً متخلفاً بعد أن كان في ظل أيديولوجية الثورة الفرنسية إنساناً قبل كل شيء ، أصبح الآن سجين خصوصيته وموضوعاً للثناء الذي يمن به عليه بعضهم »[٣١] .

وهكذا بعد أن كانت النظرة الأوروبية - التي كانت توجهها الأيديولوجية العالمية للعصر - تحترم غير الأوروبيين وتحترم ثقافاتهم ، أصبحت الآن - في

(٣٠) ، (٣١) المرجع السابق ١/ ٨٠ .

القرن التاسع عشر - نظرة متعالية متغطرسة ، وظهرت نظريات تقسم الشعوب إلى أجناس راقية وأجناس متخلفة ، فالأولى شعوب آرية والثانية شعوب سامية ، وانبرى (رينان) ومن سار على نهجه من المستشرقين والمفكرين الأوروبيين لبيان ما يزعمونه من خصائص للآريين صناع الحضارة وحملة الإبداع الخلاق ، والساميين السطحيين في تفكيرهم وفلسفاتهم[٣٢] .

ونكتفي الآن بهذا القدر من الاستطراد حول هذه النقطة لنستكمل الحديث عن تطور الاستشراق في العصر الحديث . ولنا عودة للحديث مرة أخرى عن النظرة الغربية للشرق الإسلامي عند الحديث عن صلة الاستشراق بالاستعمار .

عصـــر ازدهـــار الاستشـــراق . . .

يعد القرن التاسع عشر والقرن العشرون عصر الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية . ففي نهاية القرن الثامن عشر ، وبالتحديد في شهر مارس (آذار) من عام ١٧٩٥م قامت الحكومة الثورية في باريس بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية . وقد كان التركيز فيها على وجه الخصوص على عنصر الفائدة العملية ، بالإضافة إلى ما يمكن أن تسهم به اللغات الشرقية في تقدم الأدب والعلم[٣٣] . وبدأت حركة الاستشراق في فرنسا تتجه نحو اتخاذ طابع

(٣٢) راجع على سبيل المثال : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٩ وما بعدها - القاهرة ١٩٦٦م . وانظر ايضاً : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية من تاليف جوتييه وترجمة الدكتور محمد يوسف موسى . ص ٦ وما بعدها ، و ص ١٤ وما بعدها - القاهرة ١٩٤٥م .

(33) Fueck, op.cit. p. 142.

علمي على يد (سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy) [ت ١٨٣٨م] الذي أصبح إمام المستشرقين في عصره ، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية وكعبة يؤمها التلاميذ والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية ليتعلموا على يديه[٣٤] .

وكانت أغلب جهود « دي ساسي » العلمية منصبة على الدراسات العربية في النحو والأدب شعراً ونثراً ، وليست له دراسات حول الإسلام ، وقد أصبحت مدرسة اللغات الشرقية الحية في عهده تعد الأنموذج لمؤسسة الاستشراق العلمي والعلماني وخاصة بعد أن كان قد تم في القرن الثامن عشر انفصال الاستشراق عن اللاهوت في كل من فرنسا وانجلترا .

أما البلاد التي كانت تسود فيها اللغة الألمانية فقد كانت الجامعات فيها لا تزال حتى ذلك الوقت تحت سيطرة علماء اللاهوت . ولهذا السبب ظهر الاستشراق العلماني في ألمانيا والنمسا في بداية الأمر على يد هواة كان أبرزهم العالم النمساوي (جوزيف فون هامر برجشتال J.V. Hammer-Purgstall) [ت ١٨٥٦م] .

وهكذا يمكن القول - كما يقول بارت - بأن الاستشراق قد تشكل كعلم في القرن التاسع عشر ، وذلك :

« عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء المسبقة وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتي ، وللاعتراف لعالم الشرق بكيانه الخاص الذي تحكمه نظمه

(٣٤) المرجع السابق ص ١٥٢ ، ١٥٥ وما بعدها . وقد استخدم نابليون في حملته المشهورة على مصر عدداً كبيراً من المترجمين من تلاميذ دي ساسي . انظر : إدوارد سعيد ١٠٩ . ومما هو جدير بالذكر أن رفاعة الطهطاوي اتصل بالبارون دي ساسي أثناء إقامته في باريس وأفاد كثيراً من صحبته ، كما يشير إلى ذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق في مقدمته لكتاب المدخل إلى الفلسفة الإسلامية تأليف جوتييه وترجمة د . محمد يوسف موسى .

الخاصة ، وعندما اجتهدوا في نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا »[٣٥] .

ومن ذلك يتضح أنه بتخليص الاستشراق من سيطرة اللاهوت أصبح علماً قائماً بنفسه هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها ، وبرزت هناك نزعة علمية تتجه إلى دراسة الآداب والعقائد الشرقية لذاتها مستهدفة المعرفة وحدها[٣٦] .

أما مدى نجاح هذه النزعة في التحرر نهائياً من التعصب الديني فهذه مسألة أخرى سنقف على حقيقتها في الفصل الثاني إن شاء الله .

أما متى بدأ هذا الاتجاه الجديد على وجه التحديد فإن هذا أمر لا يمكن القطع فيه برأي على وجه الدقة ، وإن كان يمكن اعتبار منتصف القرن التاسع عشر بداية لظهور تلك الصفة العلمية ـ كما يقول بارت :

« فإذا وضعنا بقصد التبسيط منتصف القرن التاسع عشر فإننا نعني بهذا فقط أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت في هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل . ولكن النية المتجهة إلى فهم الموضوعات فهماً موضوعياً ، كانت موجودة قبل ذلك بكثير وجوداً يمكن إثباته بالأدلة والشواهد ، وكانت أوضح ما تكون في مجال الدراسات اللغوية ودراسات اللغة العربية خاصة ......

وهذا هو السبب الذي يظل من أجله المستشرقون العاملون في الصعيد اللغوي ، بمنأى عن هجوم الرأي العام العربي الإسلامي في أيامنا هذه ، بينما يتهم المستشرقون العاملون في صعيد الدراسات الإسلامية بسوء النية في أحوال ليست بالنادرة »[٣٧] .

(٣٥) بـــارت ص ١٧ .

(٣٦) د . إبراهيم اللبان : المستشرقون والإسلام . ص ١٥ (ملحق بمجلة الأزهر صفر ١٣٩٠هـ ابريل [نيسان] ١٩٧٠م) .

(٣٧) بـــارت ص ١٧ .

وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصاً قائماً بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة . كان كثير من علماء الإسلاميات والعربية في ذلك الوقت ـ مثل : نولدكه ، وجولد تسيهر ، وفلهاوزن ـ مشهورين في الوقت نفسه بوصفهم علماء في الساميات على وجه العموم أو متخصصين في الدراسات العبرية أو في دراسة الكتاب المقدس[٣٨] .

من مظاهـــر النشـــاط الاستشـــراقي ...

بدأ المستشرقون في النصف الأول من القرن التاسع عشر في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية . فقد تأسست أولاً الجمعية الآسيوية في باريس عام ١٨٢٢م ثم الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وإيرلاندا عام ١٨٢٣م ، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م ، والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م[٣٩] .

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات في إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . وقد كان (هامر برجشتال) قد أصدر أول مجلة استشراقية متخصصة في أوروبا وهي مجلة (ينابيع الشرق) التي صدرت في فيينا من عام ١٨٠٩م إلى عام ١٨١٨م .

وفي عام ١٨٩٥م ظهرت في باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الإسلامي وهي مجلة الإسلام ، وقد خلفتها في عام ١٩٠٦م مجلة العالم

(38) Bosworth, op.cit.

(٣٩) قررت هذه الجمعية في ربيع ١٩٦١م إنشاء معهد الماني للأبحاث الشرقية في بيروت . ولهذا المعهد نشاط ملحوظ ، ويقوم بانتظام بإصدار سلسلتين عن الدراسات الإسلامية والعربية معاً : « النشرات الإسلامية » و « نصوص ودراسات » ولديه مكتبة بها اكثر من ستين الف مجلد . وقد تعاقب على إدارة هذا المعهد عدد من المستشرقين الذين يشغلون اليوم عدداً من كراسي الاستشراق في الجامعات الالمانية .

الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب ، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية .

وفي عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام الألمانية Der Islam ، وفي بطرسبرج بـ «روسيا» ظهرت مجلة عالم الإسلام Mir Islama عام ١٩١٢م ولكنها لم تعمر إلا وقتاً قصيراً . وفي بريطانيا ظهرت مجلة العالم الإسلامي عام ١٩١١م على يد صمويل زويمر [ت ١٩٥٢م] الذي كان رئيس المبشرين في الشرق الأوسط(٤٠) .

وللمستشرقين اليوم في المجلات والدوريات عدد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة بمختلف اللغات(٤١) .

وقد شهد القرن التاسع عشر أيضاً بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين . وقد أتاحت هذه المؤتمرات للمستشرقين في كل مكان الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون ، والتعرف بصورة مباشرة على أعمال بعضهم بعضاً ، وتجنب ازدواج العمل حرصاً على تجميع الجهود وعدم تبديدها في أعمال مكررة .

وقد تم عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس في عام ١٨٧٣م ، وتعقد هذه المؤتمرات منذ ذلك الحين بصفة منتظمة . وقد بلغ عددها حتى الآن أكثر من ثلاثين مؤتمراً . وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الإقليمية التي يرجع بعضها إلى تاريخ أقدم من تاريخ أول المؤتمرات الدولية . فقد عقد أول مؤتمر للمستشرقين الألمان في مدينة درسدن بألمانيا في عام ١٨٤٩م . ولا تزال مثل هذه المؤتمرات تعقد بانتظام حتى اليوم(٤٢) .

(٤٠) هذا يؤكد ما سبق ان ذكرناه من ان علاقة الاستشراق بالتنصير لم تنقطع حتى الآن .

(٤١) انظر القوائم التي اوردها نجيب العقيقي باسماء هذه المجلات في الجزء الثالث من كتابه المستشرقون من ص ٣٧٧ إلى ص ٣٨٨ .

(42) Bosworth, op.cit.

وتضم المؤتمرات الدولية للمستشرقين مئات العلماء . فمثلاً مؤتمر أكسفورد كان يضم تسعمائة عالم من خمس وعشرين دولة ، وخمس وثمانين جامعة ، وتسع وستين جمعية علمية . ومجموعات العمل في كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث مجال معين من الدراسات الاستشراقية . وتنشر بحوث هذه المؤتمرات في مجلدات « للاهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت ـ مع دراسات مؤتمرهم الموضوعية والإقليمية ـ أصولاً وأمهات وأسانيد للباحثين »(٤٣) .

الاستشراق ... والاستعمار ..

لقد كان للمد الاستعماري في العالم الإسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق وخصوصاً بعد منتصف القرن التاسع عشر . وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي ، ومن ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تعزيز موقف الاستشراق ، وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق(٤٤) .

وقد شهد القرن التاسع عشر استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي .

ففي عام ١٨٥٧م تم استيلاء الانجليز سياسياً على الهند ، وأصبحت الهند بذلك تابعة للتاج البريطاني رسمياً ، بعد أن كانت حتى ذلك الحين واقعة تحت نفوذ شركة الهند الشرقية منذ القرن السابع عشر . وفي عام ١٨٥٧م أيضاً تم استيلاء فرنسا على الجزائر كلها بعد أن كان الفرنسيون قد بدؤوا

(٤٣) راجع العقيقي ٣/٣٦٥ وما بعدها .

(٤٤) تراث الإسلام ٨٣/١ والاستشراق لإدوارد سعيد ص ٧٢ .

غزوها عام ١٨٣٠م . كما احتلت هولندا قبل ذلك - في بداية القرن السابع عشر - جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية . وبعد عام ١٨٨١م تم احتلال مصر وتونس . وظل الاستعمار يقوم بتقطيع أوصال البلاد الإسلامية شيئاً فشيئاً ويضعها تحت سيادته حتى استطاع في النهاية أن يطوق العالم الإسلامي من الشرق والغرب . وبعد الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كله تقريباً خاضعاً لنفوذ الاستعمار الغربي[٤٥] .

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين . وهكذا نشأت هناك رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار ، وانساق في هذا التيار ، عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه - وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة . وفي ذلك يقول المستشرق الألماني المعاصر (استفان فيلد Stephan Wild) :

« . . . والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة »[٤٦] .

ومن بين الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار نذكر المستشرق (كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Becker) [ت ١٩٣٣م] مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في

(٤٥) د . محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٩/ ٣٠ دار الفكر - بيروت ١٩٧٣م .
(٤٦) راجع في ذلك كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٠ .

افريقيا . فقد حصل الرايخ الألماني في عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦م على مستعمرات في افريقيا تضم مناطق بعض سكانها من المسلمين ، وظلت تلك المناطق تحت السيادة الألمانية حتى عام ١٩١٨م . وقد أدى ذلك إلى تأسيس معهد اللغات الشرقية في برلين عام ١٨٨٧م وهو معهد كانت مهمته تتلخص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وبلدان الشرق الأقصى وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[٤٧] .

وفي هذا يقول المستشرق الألماني (أوليريش هارمان Ulrich Harmann) :

« كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام ١٩١٩م أقل براءة وصفاء نيَّة . فقد كان كارل هينريش بيكر - وهو من كبار مستشرقينا - منغمساً في النشاطات السياسية ، حتى إنه أصبح في عام ١٩١٤م شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في افريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين »[٤٨] .

أما (بارتولد Barthold) [ت ١٩٣٠م] مؤسس مجلة (عالم الإسلام) الروسية Mir Islama فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى .

أما عالم الإسلاميات الهولندي الشهير (سنوك هورجرونيه) [ت ١٩٣٦م] فإنه في سبيل استعداده للعمل في خدمة الاستعمار توجه إلى مكة في عام ١٨٨٥م بعد أن انتحل اسمًا إسلامياً هو (عبد الغفار) ، وأقام هناك ما يقرب من نصف عام . وقد ساعده على ذلك أن كان يجيد العربية كأحد أبنائها . وقد لعب هذا المستشرق دوراً هاماً في تشكيل السياسة الثقافية

(٤٧) بارت : ٣١/ ٣٢ .
(٤٨) انظر في ذلك المقال الذي كتبه اوليريش هارمان عن الاستشراق الالماني في مجلة (الباحث) العدد ٢٥ كانون الثاني [يناير] - شباط [فبراير] ١٩٨٣ - ص ١٤٥ .

والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في أندونيسيا(٤٩) .

وفي فرنسا كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال افريقيا . وعلى سبيل المثال كان المستشرق الكبير « دي ساسي » اعتباراً من عام ١٨٠٥م يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية . وعندما غزا الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠م كان « دي ساسي » هو الذي ترجم البيان الموجه للجزائريين ، وكان يستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزير الخارجية ، وفي حالات معينة من قبل وزير الحربية أيضاً . وإلى عهد قريب كان « ماسينيون » مستشاراً للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية(٥٠) .

ويكشف المستشرق الفرنسي (هانوتو) [ت ١٩٤٤م] ـ في مقال له بعنوان : (قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية) ـ يكشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الافريقية الإسلامية ، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى يسهل قيادهم(٥١) .

أما المصلحة البريطانية في العالم الإسلامي ، فقد كان الدافع إليها بطبيعة الحال هو ممارسة السيادة البريطانية في الهند وغيرها من البلاد الإسلامية التي استولت عليها . وقد كان (اللورد كيرزن Curzon) في أوائل القرن الحالي من أشد المتحمسين في انجلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية باعتبار أنها تعد « جزءاً ضرورياً من تأثيث الامبراطورية » ، وتساعد على

---

(٤٩) بـــارت ٣١ وانظر ايضاً : Bosworth, op.cit.

(٥٠) إدوارد سـعيد ١٤٦ ، ٢٢١ .

(٥١) انظر : الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ٣٠ وما بعدها .

الاحتفاظ بالموقع الذي نالته بريطانيا في الشرق . وقد تحولت المدرسة المذكورة فيما بعد إلى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والافريقية .

وقد كانت الحكومة البريطانية ـ من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية ـ ترسم سياستها في مستعمراتها في الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدمون لها الدراسات المطلوبة . يقول الدكتور إبراهيم اللبان رحمه الله :

« . . . والواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (كليات اللغات الشرقية في أوروبا) وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية . وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامي فيذكر أن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ، ويستمع إلى آرائهم ، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم ، هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب »(٥٢) .

والاستعمار في حقيقة أمره هو امتداد للحروب الصليبية التي كانت في ظاهرها حروباً دينية ، وفي باطنها حروباً استعمارية . وقد كانت العودة إلى احتلال بلاد العرب وبلاد الإسلام حلماً ظل يراود الغربيين منذ هزيمة

---

(٥٢) د . اللبان : المرجع السابق ص ١٨ ، إدوارد سعيد ص ٢٢٤ .

(٥٢) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعي ص ١٩ ـ مكتبة دار البيان بالكويت ١٩٦٨م .

الصليبيين « فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى موطن الضعف فيغتنموه »[٥٣] .

ولم تكن علاقة الاستشراق بالاستعمار ـ كما يظن ـ هي مجرد إضفاء طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري ، بل كان الأمر ـ كما يقوله إدوارد سعيد أيضاً ـ أبعد من ذلك وأعمق ، فالتبرير الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق ، وليس بعد حدوثها . فقد كان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها .

« فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً . فالمعرفة تمنح القوة ، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة » فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية[٥٤] .

وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار ـ بعد الاستيلاء العسكري والسياسي على بلاد المسلمين ـ إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم ، حتى يتم للاستعمار في النهاية إخضاع المسلمين إخضاعاً تاماً للحضارة والثقافة الغربية .

اليهـــود . . . والاســتشراق . .

لقد اتضح لنا مما تقدم أنه قد كانت هناك أسباب معينة على مر العصور دفعت بالباحثين الغربيين النصارى إلى الاستشراق ، وحملتهم على تحقيق

(٥٣) إدوارد سعيد : الاستشراق ص ٦٨ ، ٧٠ .
(٥٤) الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي ص ٥٣٤ .

أهداف معينة رسموها لأنفسهم سواء أكانت هذه الأهداف أهدافاً علمية أم غير علمية . وهنا يمكن لسائل أن يسأل :

ما هي الأسباب التي دفعت بعض اليهود إلى الإقبال على الاستشراق .. وما الدور الذي قاموا به في إطار الحركة الاستشراقية ؟

والإجابة على هذا السؤال ليست سهلة ، فمن الصعب الحصول على إجابة صريحة في هذا الصدد ، وذلك لأن المراجع التي تتحدث عن الاستشراق وتطوره قد أغفلت الحديث عن هذا الجانب . ونعتقد أن سبب إغفال الحديث عن هذا الموضوع يرجع إلى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في إطار الحركة الاستشراقية الأوروبية النصرانية . فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبي لا بوصفهم اليهودي . وقد استطاع « جولد تسيهر » في عصره ـ وهو يهودي مجري ـ أن يصبح زعيم علماء الإسلاميات في أوروبا بلا منازع ، ولا تزال كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كل فئات المستشرقين .

وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهوداً حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل تأثيرهم . ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين ، وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها ، وكسبوا ثانياً تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ، وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية المستشرقين النصارى .

ويشير الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث » إلى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب إقبال اليهود على الاستشراق . وتتلخص هذه الملاحظة في أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية . أما الأسباب الدينية فإنها تتمثل في محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه ، وذلك بادعاء أن اليهودية في

نظرهم هي مصدر الإسلام الأول . أما الأسباب السياسية فإنها تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانياً .

ويرى الدكتور البهي أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها ، فإن الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتضفي عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي[٥٥] .

ونحن في الواقع لسنا في حاجة إلى دليل لإثبات كراهية اليهود للإسلام ، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالشمس منذ ظهور الإسلام .

وقد أكد القرآن ذلك في قوله تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا . . . ﴾ (المائدة : ٨٢) .

وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين . وقد وجدوا في مجال الاستشراق باباً ينفثون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين ، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا في الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين .

مستقبل الاستشراق . .

وفي ختام هذا الفصل تبرز أمامنا بعض الأسئلة الملحة حول مستقبل الاستشراق : هل لا يزال الاستشراق يعيش الآن عصر ازدهاره ، أم أن نجمه بدأ يأفل وتأثيره بدأ يقل ونشاطه بدأ يتضاءل . . وخاصة بعد أن انحسر المد الاستعماري عن العالم الإسلامي ؟

(٥٥) مجلة الباحث ص ١٤٤ .

أين يقف الاستشراق الآن في العصر الحاضر ؟

ما موقف الحكومات الأوروبية اليوم من دعم النشاط الاستشراقي ؟

إن طرح هذه الأسئلة له ما يبرره . فهناك بالفعل وجهات نظر تتحدث عن نهاية الاستشراق .

وهناك من ناحية أخرى انتقادات واتهامات كثيرة موجهة إلى الاستشراق من جهات عديدة ، وإن اختلفت منطلقات هذه الانتقادات ، فمثلاً يقول أحد الساسة الألمان :

« لقد آن الأوان كي يبتعد المستشرقون باهتماماتهم عن اللهجات العربية ، ويعدوا أنفسهم لتقبل الدور الجديد كطاقة فاعلة في خدمة العلوم الاجتماعية ، وكاحتياطيين للقيام بمهمة الترجمة والشرح في ميادين العمل المختلفة » .

والمستشرقون وإن كانوا يرفضون أن ينخفض دورهم إلى هذا المستوى فإنهم يعترفون في الوقت نفسه بالقصور في جوانب مختلفة هي أيضاً مثار انتقادات عنيفة . ويجمل (أوليريشن هارمان) هذه الانتقادات فيقول :

« لقد اتهمنا بأننا متخلفون وأقل تطوراً وتقدماً في أساليبنا ، لا ننفعل حيال التحديات الجديدة . واتهمنا كذلك بأننا وصفيون نقليون ولسنا تحليليين ، وإذا كنا نقدر أنفسنا حق التقدير ، فما علينا سوى الاعتراف بأن هذا النقد صحيح إلى حد بعيد »[٥٦] .

ولكن أهم ما يؤخذ على الاستشراق من وجهة النظر الإسلامية هو تمسك

(٥٦) راجع : تراث الإسلام ١/ ٩٩ وما بعدها .

المستشرقين بالأساليب الاستشراقية البالية في فهم الإسلام وتناوله ، والروح العدائية التي تحملها دراساتهم حول الإسلام ، تلك الروح التي لا تزال مسيطرة على غالبية علماء الإسلاميات من المستشرقين ـ وستتعرف على بعض النماذج من دراساتهم الإسلامية في الفصل الثاني من هذا الكتاب ـ وهذه الروح العدائية هي العقبة الكأداء التي تجعل العربي المسلم يقف من الاستشراق موقف الحذر المتشكك ، بل موقف الرافض للاستشراق . فهل لدى المستشرقين استعداد لتطوير أساليبهم البالية في دراسة الإسلام والالتزام بالحيدة والموضوعية والنزاهة العلمية ؟

إن هناك بعض المؤشرات نحو الاقتراب من الاعتدال والاتزان في معالجة بعض المسائل الإسلامية لدى بعض المستشرقين المعاصرين من أمثال : مكسيم رودنسون ، وجاك بيرك ، وأنا ماري شمل ، على سبيل المثال لا الحصر ، وهو اتجاه نقدره ونرجو أن يصبح في النهاية تياراً عاماً ، وعندئذ يمكن أن يسهم في دعم روح التفاهم والقضاء على الروح العدائية التي استمرت قروناً عديدة .

أما الحديث عن قرب نهاية الاستشراق فلست أظن أن مثل هذه النهاية وشيكة الحدوث . فالمسألة ليست بهذه البساطة ، ولا يمكن القول بأن الحركة الاستشراقية بدأت تنحسر وأنها تعيش آخر أيامها . فالحركة لا تزال متماسكة وقوية ومنظمة ، ولا تزال جمعيات المستشرقين ومؤتمراتهم المختلفة تمارس نشاطها ، ومعاهد الاستشراق منتشرة اليوم في أغلب الجامعات الأوروبية والأمريكية . هذا فضلاً عن تغلغل المصالح الغربية في بلدان العالم الإسلامي ، وخاصة في بلاد الشرق الأوسط ، الأمر الذي يجعل هذه المصالح تساند الحركة الاستشراقية التي تقدم بدورها للجهات المعنية في الغرب الدراسات المختلفة عن بلدان العالم الإسلامي . وبالإضافة إلى ذلك كله فإن مجالات التخصص لدى المستشرقين قد تعددت وهذا يعني إثراء الدراسات

الاستشراقية لا القضاء عليها .

ولكن الشيء المهدد بالزوال ـ كما يقول رودنسون ـ هو سيطرة الدراسات الفيلولوجية (فقه اللغة) . فقد كان هناك اتجاه سائد في الحركة الاستشراقية لفترة تزيد على قرن من الزمان يركز على التدريب الفيلولوجي بوصفه كافياً لحل جميع المشاكل الناشئة ضمن ميدان لغوي محدد .

وهناك دلائل تشير إلى التخلي عن هذا الاعتقاد ، وذلك نظراً للزيادة الكبيرة في المعلومات المتوفرة ، بالإضافة إلى تعدد أدوات البحث وتقدم طرق الدراسة ، الأمر الذي أصبح يمكن الباحث من تجاوز المرحلة الفيلولوجية أو على الأقل يخصص لها وقتاً أقل من ذي قبل . فقد كشف التقدم في العلوم الاجتماعية « عن مدى تعقيد المشاكل التي لا يمكن حلها بالاتجاه إلى الفهم العادي السليم وحده ، وبالمعرفة العميقة باللغة ، بل ربما أيضاً لا يمكن حلها عن طريق استلهام مبادىء فلسفية عامة . لذا فقد أصبحت الدراسات الشرقية وبصورة خاصة الدراسات الإسلامية أكثر صعوبة وأقل خصوصية ، وأصبح الربط بينها وبين العلوم الأخرى ـ الذي كان ترفاً فيما مضى ـ حاجة لا مفر منها الآن »[٥٧] .

ويعني رودنسون بالعلوم الأخرى هنا ، علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والانثربولوجيا والسكان . . . إلخ .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أنه قد عقدت ندوة عن علم الاجتماع الإسلامي في بروكسل عام ١٩٦١م . وهذا أمر يبين لنا بداية انفتاح مجالات جديدة أمام الدراسات الاستشراقية كانت مهملة تماماً في السابق .

وهكذا يمكن القول بأن انحسار المد الاستعماري العسكري عن العالم الإسلامي لا يعني بالتالي القضاء على الحركة الاستشراقية . فالاستعمار العسكري كان مرحلة ارتبطت بها من غير شك جهود طائفة من المستشرقين .

(57) Bosworth, op.cit.

ولكن هناك طائفة أخرى لم ترتبط بالاستعمار ، وليس يعني ذلك بالضرورة أنها كانت منصفة للإسلام والمسلمين .

وقد عاش الاستشراق عصر ازدهاره في النصف الثاني من القرن الماضي ، والنصف الأول من هذا القرن . . وشهدت تلك الفترة جيل العمالقة من المستشرقين . وقد ظهرت الآن أجيال جديدة تسير على الدرب نفسه وتترسم خطى السابقين .

وتهتم الحكومات الأوروبية بدعم الحركة الاستشراقية في أوروبا ، ولا تبخل عليها بالمال اللازم لاستمرار نشاطها .

يقـــول (رودي بارت) :

« الاستشراق في ألمانيا حالياً وفي العالم الأوروبي الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع . . . نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار . . . وما تطلبه الدولة والمجتمع منا ـ معشر المستشرقين ـ هو بصفة عامة العمل كمدرسين وباحثين متخصصين . أما التصرف في أمر الموضوعات الخاصة التي ينصب عليها الدرس والبحث فمتروك لنا »[٥٨] .

ولكن هناك مستشرقاً آخر يعترف بأن مقدمي الدعم المالي يمارسون ضغوطاً على الاستشراق ، الأمر الذي يتناقض مع ما يقوله (بارت) من أن الحكومات التي تقدم الدعم لا تتدخل في أمر البحوث الاستشراقية .

(٥٨) بـــارت ١٣ ، ١٤ .

يقـــول (أوليريش هارمـــان) :

« . . . وطبعاً هناك أيضاً الضغط الملح من قبل أولئك الذين يقدمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي الإسلامي والتشبث به ، باعتباره منطقة اضطراب ، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه »[٥٩] .

فهناك إذن ارتباط وثيق بين مصالح الغرب واهتماماته ودعم الحركة الاستشراقية . وهذا أمر يجعل استمرار الاستشراق متوقفاً على استمرار الدعم المالي الذي تقدمه الحكومات والهيئات المختلفة ، واستمرار الدعم المالي يتوقف على مدى تشبث الغرب بمصالحه في العالم العربي والإسلامي ، والتشبث بهذه المصالح حقيقة واقعة تؤكدها جميع الشواهد . وليس هناك أي بارقة تلوح في الأفق توحي بأن الغرب على استعداد للتخلي عن هذه المصالح . وما دام الأمر كذلك فإن الحاجة إلى الاستشراق في الغرب ستظل قائمة ، بل وستزداد إلحاحاً .

(٥٩) مجلة الباحـث ١٤٤ .

الفصل الثاني

المستشرقون وموقفهم من الإسلام

تمهيد ...

بعد أن تعرفنا في الفصل السابق على الخطوط العريضة لنشأة الاستشراق وتطوره نأتي الآن في هذا الفصل لنتعرف على الآراء والمواقف الاستشراقية المتصلة بالدراسات الإسلامية على وجه الخصوص، ومدى اقترابها أو ابتعادها من الروح العلمية الموضوعية.

وقبل الدخول مباشرة إلى عرض هذه الآراء والمواقف نرى أنه من المناسب أولاً أن نمهد لذلك باستعراض سريع لبعض النقاط العامة التي تتصل بأعمال المستشرقين بصفة عامة.

وفي هذا الصدد لا بد لنا من الحديث عن المنهج الذي يسيرون عليه في دراساتهم لتحقيق الأهداف التي وضعوها لأنفسهم. ومن خلال ذلك كله سيتضح لنا أن الحركة الاستشراقية تضم تحت جناحيها فئات من المستشرقين تتميز كل منها عن الأخرى حسب الأهداف التي وضعتها كل فئة لنفسها.

وبعد الانتهاء من عرض هذه النقاط العامة يصبح من السهل علينا أن ننتقل إلى استعراض لبعض الآراء الأساسية للمستشرقين فيما يتصل بالإسلام ودراسته . ثم نعقب على ذلك بما نستخلصه من المواقف الاستشراقية إزاء الإسلام .

ونحن باديء ذي بدء لا ندخل على المستشرقين هنا دخول المُنْكِر المعاند الباحث عن المثالب ، وإنما ندخل عليهم دخول الباحث الذي يتوخى الوصول إلى الحقيقة ، وهذا سيجعلنا نتعرف على ما للمستشرقين من إيجابيات تذكر لهم ، وما لهم من سلبيات تسجل عليهم . وهذا منهج حثنا الإسلام على اتباعه إحقاقاً للحق ووضعاً للأمور في نصابها :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ ﴾ .

فكل من « الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال ، وما تطرقوا إليه من أبحاث »[1] .

وهكذا لن نغمطهم حقهم في تقدير مالهم من أعمال علمية مفيدة . ولا ضير على المرء إذا اعترف بما لخصمه من مزايا وإيجابيات ، إذ أن ذلك ربما يكون حافزاً لنا على النهوض والاستعداد من جديد ، وقبول التحدي الذي تفرضه علينا ـ نحن المسلمين ـ ظروف العصر .

والإيجابيات التي سنذكر هنا طرفاً منها ، بعضها يخص المستشرقين أنفسهم ويتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم ، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط ؛ وبعضها الآخر أمور تتصل بإنتاجهم العلمي الذي يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب وإن كان المستشرقون قد قصدوا به في المقام الأول خدمة أنفسهم ، إلا أنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم .

---

(١) د . مصطفى السباعي : « الاستشراق والمستشرقون » ، ص ١٥ .

وفي الوقت نفسه لن نغمض الطرف عن سلبياتهم الكثيرة وما اقترفوه في حق الإسلام والمسلمين من تضليل وبهتان .

أعمال المستشرقين . . .

تتمثل جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل في أعمال مختلفة تشكل في مجموعها كلاً واحداً . ويمكن تلخيص هذه الأعمال في عدة أمور هي :

١ ـ التدريس الجامعي .
٢ ـ جمع المخطوطات وفهرستها .
٣ ـ التحقيق والنشر .
٤ ـ الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية .
٥ ـ التأليف في شتى مجالات الدراسات العربية والإسلامية .

وفيما يلي نلقي نظرة سريعة على هذه الأعمال :

[١] التدريس الجامعي . . .

يكاد يكون هناك في كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية ، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل جامعة ميونيخ حيث يوجد بها معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية ومعهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى . ويرأس كل معهد أستاذ ويساعده بعض المحاضرين والمساعدين . وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي وتعليم العربية وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه ممن سيواصلون أعمالهم في المجال الاستشراقي الأكاديمي أو غيره

من مجالات أخرى في السلك الدبلوماسي أو الالتحاق بأعمال في الأقسام الشرقية بدور الكتب ، أو في مراكز البحوث المهتمة بالشرق ، أو غير ذلك من أعمال في جهات لها صلة بالشرق .

ومن هنا تأتي أهمية ما يحمله المستشرقون من أيديولوجية بالنسبة لما يخلفونه من آثار في الدارسين على أيديهم وما ينطبع منهم على غيرهم[٢] .

ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية والإسلامية التي تخدم الدراسات والبحوث العلمية للدارسين .

وتفتح هذه المعاهد أبوابها للدارسين من كل مكان ومنها يتخرج أيضاً بين الحين والحين أعداد لا بأس بها من العرب المسلمين الذين يعودون إلى بلادهم لتولي مهمة التدريس في جامعات بلادهم .

ويتفانى المستشرقون في أعمالهم ويخدمون أهدافهم بإخلاص تام وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل . ولديهم صبر عجيب ونادر في البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة . وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى :

« الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم »[٣] .

وهم معرفة جيدة بأهم ما ينشر عن الدراسات العربية والإسلامية في بلادنا ، ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها . وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهي أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم إذا نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

(٢) طيباوي : (الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي ، ص ٥٩٠) .
(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص ٢٧ .

[٢] جمع المخطوطات العربية ...

اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي . وكان هذا العمل مبنياً على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثاً غنياً في شتى مجالات العلوم . وكان بعض الحكام في أوروبا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات . وقد ساعد الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية في أوروبا وتنشيطها . ومنذ الحملة النابليونية على مصر عام ١٧٩٨م تزايد نفوذ أوروبا في الشرق وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات . وكانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق . فعلى سبيل المثال أرسل « فريدريش فيلهلم الرابع » ملك بروسيا « ريتشارد ليبسيوس » إلى مصر عام ١٨٤٢م ، و« هينريش بترمان » عام ١٨٥٢م إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية . وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة ، وقد لقيت هذه المخطوطات في أوروبا اهتماماً عظيماً ، وتم العمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة وفهرستها فهرسة علمية نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً ، وتشير إلى ما يتضمنه من موضوعات وتذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته وتاريخ تأليف الكتاب أو نسخه ... إلخ . وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين في الاطلاع عليها في مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات معقدة .

وقد قام مثلاً ألوارد Ahlwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة برلين في عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فناً ودقة وشمولاً . وقد صدر هذا

الفهرس في نهاية القرن الماضي واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط . وقد قام المستشرقون في الجامعات والمكتبات الأوروبية كافة بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة ، وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف ، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف .

وهناك دراسات للمستشرقين عن هذه المخطوطات في مجالات عديدة . وعلى سبيل المثال قامت باحثة من المستشرقين بإعداد بحث عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر ، قال عنه الشيخ أمين الخولي بعد أن سمعه أثناء حضوره لمؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين :

« لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكي بحثاً عن نوادر مخطوطات القرآن في القرن السادس عشر الميلادي . وإني أشك في أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات . وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها »[٤] .

وهنا كلمة حق يجب أن تقال وهي أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة . وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة في كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها .

(٤) راجع العقيقي ٣/٣٥٢ وما بعدها ، وكذلك ٣/٥٩٨ . راجع أيضاً : Fueck, op.cit. 189-191.

[٣] التحقيـــق والنشـــر . . .

ولم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها ، بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر . فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث وقابلوا بين النسخ المختلفة ولاحظوا الفروق وأثبتوها ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها ، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها في أواخر الكتب التي نشروها ، وقاموا في بعض الأحيان بشرح بعض الكتب شرحاً مفيداً[٥] .

وهكذا استطاعوا أن ينشروا عدداً كبيراً جداً من المؤلفات العربية ، كانت عوناً كبيراً للباحثين الأوروبيين من المستشرقين وغيرهم من بلاد الشرق . وقد عرفنا الكثير من كتب التراث محققاً ومطبوعاً على أيديهم . ومن بين هذه الكتب نذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ نشرهم لسيرة ابن هشام ، والإتقان للسيوطي ، والمغازي للواقدي ، والكشاف للزمخشري ، وتاريخ الطبري ، وكتاب سيبويه ، والاشتقاق لابن دريد ، والأنساب للسمعاني ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وتجارب الأمم لابن مسكويه ، وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، واللمع لأبي نصر السراج ، والبديع لابن المعتز ، وحي بن يقظان لابن طفيل ، والمختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي ، والملل والنحل للشهرستاني ، وعمدة عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ النسفي ، وفتوح الشام للأزدي البصري ، وفتوح الشام للواقدي ، والكامل للمبرد ، والجمهرة لابن دريد ، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ، وكتاب المناظر لابن الهيثم ، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، والأحكام السلطانية للماوردي ، وفضائح

(٥) اللبـان ص ٢٠ .

الباطنية للغزالي ، وتاريخ اليعقوبي ، والفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، والتعريفات للجرجاني ، وطبقات الحفاظ للذهبي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتهذيب الأسماء للنووي ، وصحيح البخاري ، والمقتضب لابن جني ، ومقالات الإسلاميين للأشعري ، والوافي بالوفيات للصفدي ، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان الداني ، والرد الجميل على مدعي ألوهية المسيح بصريح الإنجيل للغزالي ، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، والأغاني للأصفهاني ، والأوائل للسيوطي ، والطبقات لابن سعد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والفقه الأكبر لأبي حنيفة ، وعدد هائل من دواوين الشعر العربي في عصوره المختلفة .

[٤] الترجمـــــة . . .

ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضاً بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة ، فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر والمعلقات وتاريخ أبي الفداء وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب للمسعودي ، وتاريخ المماليك للمقريزي ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ، والإحياء والمنقذ للغزالي ، وغير ذلك من مئات الكتب في اللغة والأدب والتاريخ والعلوم الإسلامية المتعددة ، هذا فضلاً عما ترجم في القرون الوسطى من مؤلفات العرب والمسلمين في الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من علوم .

وقد سبق أن عرفنا في الفصل السابق أن القرآن قد تمت ترجمته لأول مرة في القرن الثاني عشر . وقد قام المستشرقون منذ ذلك الوقت وحتى الآن بإعداد العديد من ترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبية كافة ، وقد مهدوا لترجماتهم

بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام ، وبذلك أعطوا للقارىء من بادىء الأمر تصورهم الذي لا يتفق في معظم الأحيان مع الحقائق الإسلامية ، بل قد يصطدم مع هذه الحقائق اصطداماً جوهرياً .

وفيما يلي بيان تقريبي بعدد الترجمات المعروفة التي تمت في عدد من اللغات الأوروبية من قبل غير المسلمين[٦] .

في اللغة الألمانيـة	١٤	ترجمة
في اللغة الانجليزية	١٠	ترجمات
في اللغة الإيطالية	١٠	ترجمات
في اللغة الروسية	١٠	ترجمات
في اللغة الفرنسية	٩	ترجمات
في اللغة الاسبانية	٩	ترجمات
في اللغة اللاتينية	٧	ترجمات
في اللغة الهولندية	٦	ترجمات

[٥] التأليـــــف . . .

تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين وبلغ عدد ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب[٧] .

لقد ألَّفوا في التاريخ العربي والإسلامي ، وفي علم الكلام ، وفي الشريعة ، وفي الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي ، وفي تاريخ أدب

(٦) نحن مدينون في هذا الجزء من الإحصاء بالشكر للأخ الفاضل الدكتور/ حسن المعايرجي ، وهو مهتم بموضوع ترجمات القرآن ، وقد احصى حتى الآن ترجمات للقرآن الكريم في مائة وإحدى وعشرين لغة في انحاء العالم كافة .

(٧) إدوارد سعيد ص ٢١٦ .

اللغة العربية ، وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة النبوية ، وفي النحو العربي وفقه اللغة العربية . ولم يتركوا مجالاً من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلا وألَّفوا فيه .

ولهم بعض مؤلفات قيمة ذات فائدة علمية للباحثين ، ولهم مؤلفات أخرى تزخر بالطعن في الإسلام ، وتمتلىء بالأكاذيب التي ليس لها في سوق العلم نصيب . وسنتحدث بشيء من التفصيل عن بعض الأمثلة من هذه الكتابات عند عرضنا لآراء المستشرقين حول الإسلام في هذا الفصل .

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المؤلفات ذات القيمة العلمية كنماذج للمؤلفات المفيدة .

(أ) تـــاريخ الأدب العـــــربي . . .

من تأليف المستشرق الألماني كارل بروكلمان (توفى ١٩٥٦م) وهو كتاب أساسي في الداسات العربية والإسلامية لا يستغني عنه باحث في الدراسات العربية والإسلامية ، وقد قام بروكلمان بهذا العمل الضخم بمفرده .

ولا يقتصر هذا الكتاب على الأدب العربي وفقه اللغة ، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية . فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها والمطبوع . ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين . وقد صدر أولاً في مجلدين في عامي ١٨٩٨م ، ١٩٠٢م ثم أتبعه المؤلف بثلاثة مجلدات تكميلية كبيرة تضم في مجموعها حوالي ٢٦٠٠ صفحة في الفترة من عام ١٩٣٧م إلى عام ١٩٤٢م ، ثم أعاد نشر المجلدين الأساسين في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٩م في طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلها مع المجلدات الثلاثة التكميلية .

وقد حصلت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ـ إدراكاً منها لأهمية هذا الكتاب لكل باحث عربي ـ حصلت عام ١٩٤٨م على موافقة بروكلمان وإذنه بترجمة الكتاب إلى العربية . وقد بعث بروكلمان إلى الإدارة المذكورة بجزء كتبه بخطه وباللغة العربية يحتوي على تصحيحات وزيادات لغرض إلحاقها بالترجمة . وقد قام الدكتور عبد الحليم النجار رحمه الله بترجمة بعض أجزاء من هذا الكتاب إلى العربية بتكليف من الجامعة العربية ، وصدر الجزء الأول منها عام ١٩٥٩م . ووصل ما صدر من أجزاء حتى الآن ستة أجزاء . وكانت الترجمة قد توقفت بعد وفاة الدكتور النجار وصدور الأجزاء الثلاثة الأولى .

وقد تم تقسيم الكتاب كله إلى ثمانية عشر جزءاً وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتوزيع باقي الأجزاء على مجموعة من الباحثين لترجمتها حتى يتسنى نشر الكتاب كله دفعة واحدة . وقد طُلب مني القيام بترجمة الجزء السابع عشر . وكانت المنظمة العربية تستحث الباحثين بين الحين والحين برسائل رسمية لإنجاز هذا العمل . ولكن رياح التيارات السياسية التي اجتاحت المنطقة العربية في السنوات الأخيرة عصفت بهذا العمل الثقافي البحت ولم نعد نسمع شيئاً لا من المنظمة العربية صاحبة التكليف بالترجمة ولا من أي جهة أخرى .

ويكفي هنا لتعريف القارىء بقيمة هذا الكتاب أن نورد السطور التالية من مقدمة الدكتور عبد الحليم النجار للكتاب . . والتي وردت في الجزء الأول من الترجمة العربية . يقول رحمه الله في بداية المقدمة :

« كان تعريب كتاب تاريخ الأدب العربي « لكارل بروكلمـــان » أملاً يراود كل قارىء بالعربية حينما يبحث في علوم العرب وآدابهم ، أو يحاول سبر جهود العلم العربي ومتابعة خطواته في تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته ، أو يريد

حصر ما تشتت وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب ، ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والاعتزاز ، أو عدة ومدداً للبعث والإحياء ، أو يتطلع أخيراً إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم من ذلك التراث الخالد ، وما أثير حوله من بحوث ، وصنف من دراسات قدمت خطى العلم والأدب ودفعتها إلى الأمام في الشرق والغرب » .

وقد كان بروكلمان يدرك أن عمله في حاجة مستمرة إلى الإكمال - بناء على ما يكتشف من مخطوطات ولذلك كان دائب العناية بإكماله على مدى نصف قرن . ويقوم الآن الباحث التركي المسلم فؤاد سيزكين - تلميذ المستشرق الألماني هيلموت ريتر - بعد اكتشاف آلاف المخطوطات بإكمال عمل بروكلمان ، وذلك في كتابه (تاريخ التراث العربي) بالألمانية الذي ترجم بعضه إلى العربية ، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات .

(ب) دائـــرة المعـــارف الإسلاميـــة . . .

على الرغم مما لنا نحن المسلمين على هذه الدائرة من مآخذ كثيرة فإنها تعد ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين . وقد تم إصدارها في طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩٣٨م . وقد تولت نقلها إلى العربية لجنة دائرة المعارف الاسلامية من خريجي الجامعة المصرية منذ عام ١٩٣٣م ولكنها لم تصل في الترجمة إلا إلى حرف العين . . وقد عمد المترجمون إلى نشر تعليقات هامة في أعقاب الكثير من المقالات لتصحيح الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون ، وقام بكتابة هذه التعليقات مجموعة من العلماء المعروفين .

وقد تجاوز المستشرقون فيها بعد هذه الدائرة المتداولة ، وقاموا بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وقد ظهرت الطبعة الجديدة باللغتين الانجليزية والفرنسية فقط من عام ١٩٥٤م حتى عام ١٩٧٧م .

وقد أشار نجيب العقيقي إلى أن اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف ترجع الآن إلى الطبعة الجديدة ابتداءً من حرف العين بدلاً من الرجوع إلى الطبعة القديمة التي تقادمت بعض معلوماتها[٨] .

(ج) المعـــاجم . . .

للمستشرقين باع طويل في مجال المعاجم والقواميس اللغوية . وقد سبق أن أشرنا إلى إنجاز أول قاموس لاتيني عربي في القرن الثاني عشر الميلادي . ونذكر في هذا الصدد أيضاً المعجم العربي اللاتيني الذي ألّفه جورج فيلهلم فرايتاج [ت ١٨٦١م] ذلك المعجم الذي لا يزال يستعمل حتى اليوم[٩] . بالإضافة إلى العديد من القواميس الصغيرة والكبيرة التي تجمع بين العربية وغيرها من لغات أوروبية مختلفة كالانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من لغات أوروبية أخرى .

وهناك مستشرقون ينفقون سني عمرهم في إعداد مثل هذه المعاجم . وحسبنا أن نشير هنا إلى معجم اللغة العربية القديمة المرتب حسب المصادر ، فقد قضى أوجست فيشر [ت ١٩٤٩] أربعين عاماً في جمعه وتنسيقه ، وتعاون معه عدد من المستشرقين .

(٨) العقيقي ٣/٣٧٢ .
(٩) بــارت ص ١٨ .

ونخص بالذكر هنا أيضاً المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل . وقد تم نشره في سبعة مجلدات ضخمة في الفترة من عام ١٩٣٦م حتى عام ١٩٣٦م . وتفيد من هذا المعجم الجامعات والمعاهد الإسلامية كافة في العالم .

أهـــــــداف المستشـــــرقين . . .

بعد أن تعرفنا على طرف من أعمال المستشرقين يستبد العجب ببعضنا وتعتريه الدهشة لموضوع الاستشراق ويتساءل :

ما الذي يدعو الباحث الغربي إلى بذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة عالم غريب عنه . . يدرس لغاته التي تختلف تماماً عن لغته ، ويحاول جاهداً فهم آدابها وعقائد أهلها وتاريخهم ؟

ما الذي يحمله على ذلك وقد كان في وسعه أن يوجه كل تلك الجهود لدراسة مجالات أوروبية أخرى يمكن أن تظهر فيها مواهبه وإمكاناته الفكرية من ناحية ، ومن ناحية أخرى تكون أكثر فائدة له من الناحية العملية ؟ وكما يقـــول نجيب العقيقي :

« فلو أن أحدهم انصرف طوال حياته إلى حل الكلمات المتعارضة ، أو جمع طوابع البريد النادرة ، أو كتابة القصص البوليسي ، بدل التحقيق والترجمة والتصنيف ، لخرجت به من تلك الجزائر المتعددة التي يعيش فيها المستشرقون إلى العالم الرحب في القرن العشرين ، ولعادت عليه برخاء من العيش وشهرة بين الناس وسلامة من النقاد »[10] .

(١٠) العقيقي ٣/ ٦٠٥ .

ويعتقد نجيب العقيقي أن الدافع العلمي كان وراء كـل الجهود الاستشراقية . والعقيقي ـ على الرغم من أنه عربي ـ يعتبر نفسه واحداً من المستشرقين . فقد صنف نفسه في كتابه (المستشرقون) تحت عنوان المدرسة المارونية بوصفه واحداً من أتباع هذه المدرسة التي أسهمت بجهودها في مجال الاستشراق[11] .

ولكن المستشرق الألماني المعاصر « رودي بارت » يرى أن الدافع العلمي في الحركة الاستشراقية بدا أظهر ما يكون اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر . ويعني هذا في رأيه أن معظم الكتابات الاستشراقية قبل ذلك كان ينقصها الطابع العلمي . يقول « بـــارت » :

« . . . إننا في دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية ، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة »[12] .

ولكن الأمر بالرغم من ذلك ليس أمراً عادياً أو من قبيل المصادفة . . فاتجاه الأوروبيين لدراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك هي مؤسسة الاستشراق لا بد أن تكون وراءه أهداف معينة .

ويستطيع كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا ، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه ، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية . وحتى نهاية القرن التاسع

(١١) لست ادري كيف ادرج نجيب العقيقي نفسه في عداد المستشرقين مع انه يتحدث عنهم بصيغة « الآخرين » فيقول مثلاً : « لقد بلغ المستشرقون من تعاليم لغاتنا وحفظ تراثنا والكشف عن آثارنا وإحيائها بالنشر والترجمة والتصنيف ذلك المبلغ لمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر جميعاً (كذا) لنا من قبل . راجع ٣/ ٥٩٨ . وإذا كنا ندهش لصنيع العقيقي فإننا في الوقت نفسه لا نقلل من قيمة الجهد الكبير الذي بذله في إعداد كتابه القيم « المستشرقون » .

(١٢) بـــارت ١٠ .

عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلاً إلا بدرجة ضئيلة[13] .

والهدف الديني للاستشراق كان يسير منذ البداية في اتجاهات ثلاثة متوازية تعمل معاً جنباً إلى جنب ، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يأتي :

١ - محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه ، وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية ، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه . . . إلخ .

٢ - حماية النصارى من خطره بحجب حقائقه عنهم ، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة ، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين .

٣ - التبشير وتنصير المسلمين . وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق .

وقد كان قرار « فيينا » الكنسي في ١٣١٢م وقرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون ، وتأسيس مجلة العالم الإسلامي The Muslim World عام ١٩١١م عن طريق صمويل زويمر رئيس المبشرين في الشرق الأوسط ، والذي توفي في أوائل الخمسينيات من القرن الحالي - كانت هذه بعض الشواهد الظاهرة في اتجاه خدمة الهدف الديني والعمل من أجله في محيط الاستشراق .

وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهراً الآن في الكثير من الكتابات الاستشراقية فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً . إنه لا يزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي . فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى - المشتغلين بدراسة الإسلام - وأكثرهم متدينون ، أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية ويهاجمها ويفندها مثل عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء ، كما أنه من الصعب عليهم أيضاً أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها[14] .

(١٣) إدوارد سعيد ص ٢٦٥ . (١٤) اللبان ص ٣٤ .

ونحن إذ نسجل ذلك فإننا ننبه في الوقت نفسه إلى أن ذلك ليس حكماً عاماً على جميع المستشرقين . فهناك فريق من المستشرقين قد حاول جاهداً الالتزام بالحيدة والموضوعية وأنكر على كثير من زملائه نزواتهم التي انحرفت بهم عن النزاهة العلمية ، وهناك من أنصف في جانب وتحامل في جانب آخر .

يقول « مونتجمري وات » :

« جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام . وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل ، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة . فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها » .

ويقول « برنار لويس » :

« لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية » .

ويقول « نورمان دانييل » :

« على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاماً »[15] .

ولكن الهدف الديني لم يكن هو كل شيء ، فقد كانت هناك أيضاً أهداف أخرى للاستشراق تقترب أو تبتعد من الهدف الديني . ومن هذه الأهداف ما يأتي[16] :

(١٥) نقلاً عن المرجع السابق ٣٦ ، ٣٧ .

(١٦) انظر : الاستشراق للدكتور إسحق موسى الحسيني ١٥ - ١٧ (محاضرة في الموسم الثقافي للأزهر) .

١ ـ أهــداف علميــــة :

وقد كانت مقصد بعض من ظهروا في عصر التنوير في أوروبا ، فمنهم من قرأ الكتب الدينية وفحصها وأدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية ومؤيدة لما جاء في كتبها من إيمان بالله وكتبه ورسله ودعوة إلى الحق والخير والصلاح . ولكن هؤلاء كانوا قلة .

٢ ـ أهــداف تجاريــــة :

وقد ظهرت تلك الأهداف التجارية في عصر ما قبل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين . فقد كان الغربيون مهتمين بتوسيع تجارتهم والحصول من بلاد الشرق على المواد الأولية لصناعاتهم التي كانت في طريقها للازدهار . ومن أجل هذا وجدوا أن الحاجة ماسة للسفر إلى البلاد الإسلامية ، والتعرف عليها ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية ، حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد ، وتحقيق ما يصبون إليه من وراء ذلك من تحقيق فوائد كثيرة تعود على تجارتهم وصناعاتهم بالخير العميم .

ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات وكذلك الملوك في بعض الأحيان يزودون الباحثين بما يحتاجون إليه من مال ، كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية .

ونظراً لأهمية الدين وتأثيره الفعال في الأخلاق والمعاملات فقد اتجه هؤلاء الباحثون لدراسته وكتابة التقارير وتأليف الكتب عنه .

ولكن هذه الطائفة كانت أيضاً قلة مثل الطائفة السابقة .

٣ ـ أهــداف سياسيــــة :

ظهرت تلك الأهداف السياسية واضحة جلية واتسع مداها باتساع رقعة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . واضطرت الدول الاستعمارية أن تعلم موظفيها في

المستعمرات لغات تلك البلاد ، وأن تدرس لهم آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسون هذه المستعمرات ويحكمونها . وقد اتجهوا في هذه المرحلة إلى العناية باللهجات العامية والعادات السائدة كما عنوا بالدين والشريعة .

فئــــات المستشــــرقين . . .

ومن خلال هذا العرض السريع لأهداف المستشرقين المختلفة التي كانت تتداخل مع بعضها في أحيان كثيرة يتضح لنا أن المستشرقين فئات مختلفة تتراوح بين التعصب والإنصاف . فإذا تجاوزنا من لهم ميول تبشيرية خفية أو سافرة نجد أن المستشرقين العلمانيين ينقسمون إلى فئات مختلفة :

(أ) فريق من طلاب الأساطير والغرائب ، من هؤلاء الذين افتروا على الإسلام واخترع خيالهم المريض حوله الأقاصيص الكاذبة . ولم يكن لهذا الفريق في سوق العلم نصيب . وقد ظهر هذا الفريق في بداية نشأة الاستشراق . واختفى بالتدريج .

(ب) فريق من المرتزقة الذين جندوا دراساتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية . وقد أشرنا إليهم عند حديثنا عن الاستشراق والاستعمار .

(ج) وفريق من المتغطرسين الذين أخذتهم العزة بالإثم وأعمتهم الضلالة عن النزاهة العلمية ، فراحت أقلامهم تقطر حقداً وعداوة وطعناً في الإسلام من أمثال : « بدويل » و « بريدو » و « سـيل » من القرن الثامن عشر . وقد كان لكتابات بعضهم مثل « سيل » أثر كبير في الغرب لمدة طويلة . ويتساوى مع هؤلاء في الحقد والعداوة للإسلام مجموعة من الملحدين الذين ينالون من الإسلام نيلهم من النصرانية .

(د) فريق تعرض للإسلام باسم البحث العلمي ولكنهم انحرفوا عن جادة الصواب فراحوا يتلمسون نقاط ضعف في الإسلام ، ويشككون في صحة الرسالة الإسلامية ، وفي التوحيد الإسلامي ، وفي القرآن من حيث مصدره أو نصه ، وفي الحديث من حيث صحته ، وفي قيمة الفقه الإسلامي الذاتية ، وفي قدرة اللغة العربية على التطور . . . إلخ .

(هـ) وهناك فريق من المستشرقين التزم في دراسته للإسلام بالموضوعية والنزاهة العلمية وأنصف الإسلام والمسلمين . وقد أدى الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام[17] .

(و) وهناك فريق من المستشرقين توفر على دراسة اللغة العربية وفقه اللغة والأدب العربي أو اشتغل بالمعاجم وما شابه ذلك ، ولهؤلاء بحوث قيمة مفيدة .

ويهمنا عند عرض آراء المستشرقين حول الإسلام أن نناقش تلك الآراء الاستشراقية الأساسية التي ترسخت في الأذهان ، وأصبح لها حجية أو شبه حجية . وخاصة إذا كانت هذه الآراء صادرة باسم العلم والمنهج العلمي واستخدام أساليب النقد والتحليل في البحث . فقد ينخدع بعضهم بتلك الشعارات العلمية . ولكن البحث والتنقيب في هذه الآراء يظهر لهم أنهم كانوا يجرون وراء سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً .

أما الفرق الأخرى فإما أن أمرها مفضوح ، وغشها مكشوف ، وكذبها صراخ ، وهذه ليس لنا معها حديث لأن المستشرقين أنفسهم يعترفون الآن بأن مثل هذه الفرق لا وزن لها ، وإما أنها فرق منصفة للإسلام أو لا صلة لدراساتها بالإسلام . ولذلك فهي بعيدة عن موطن الشبهات .

ولعلنا في مناسبة أخرى نعرض لآراء المستشرقين المنصفين للإسلام ونوفيهم حقهم من التقدير .

(١٧) راجع : العقيقي ٣/ ٦١٩ وما بعدها ، والسباعي : الاستشراق ص ٢٢ وما بعدها .

منهـــج المستشـــــرقين . . .

وقبل عرض أمثلة من آراء هذه الفئة التي صدرت آراؤها ومواقفها باسم العلم والموضوعية يهمنا هنا أن نتعرف على المنهج الذي يستخدمه المستشرقون في دراستهم للإسلام .

يقـــول « رودي بـــارت » :

« . . . فنحن معشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي ، بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ، ومظاهره المختلفة ، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة ، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر ، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه ، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن[18] » .

وقد لا يبدو على هذا المنهج غبار من وجهة النظر العلمية . « فالقوم يدرسون العلوم الإسلامية العربية ، ويضعون نظريات ، ويكونون آراء في أثناء ما يقومون به من دراسات ، ويهتمون بتقديم أدلة وأسانيد لهذه الآراء والنظريات ، يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها ، وهذا العمل في ظاهره عمل علمي سليم . ولكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه

(١٨) بارت ص ١٠ .

مصنوع ، وكثيراً ما يكون الدافع إليه الرغبة في التجريح ، وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية »[19] .

فقد عرض مثلاً أحد المستشرقين المعاصرين وهو (جاستون فييت) في كتابه « مجد الإســلام » ـ تاريخ الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه ، لأن « جاستون فييت » اختار فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً ، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين[20] .

والبحث العلمي النزيه لا صلة له إطلاقاً بالرغبة في الطعن والتجريح ، والبحث عن نقاط الضعف والتشويه ، وتسقط الأخطاء . والأسلوب العلمي يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبط من نظريات ، ولكن الرغبة في التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات . « فهم لا يترددون في الاعتماد على الأحاديث الضعيفة وهم ينقبون في طوايا كتب التاريخ والسير عن أخبار ضعيفة غير ثابتة يدعمون بها آراءهم . ولهم صبر لا ينفد في استكشاف هذه المخبوءات واستغلال الضعيف من الدلالات . ومهما يكن من شيء فهم لا يستوعبون دراسة ما بأيديهم من المسائل ، وكثيراً ما يغفلون النصوص والأخبار التي تناقض ما يقررون »[21] .

وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء ، وإنما هو انحراف عن النهج العلمي السليم . وهذا الانحراف العلمي هو للأسف طابع الكثير من

---

(١٩) اللبــــان ٣٢ .
(٢٠) انظر في ذلك النقد القيم لكتاب فييت « مجد الإسلام » للدكتور حسين مؤنس (ملحق بكتاب الدكتور البهي : الفكر الإسلامي الحديث من ص ٥٦٥ إلى ٥٧٧) .
(٢١) اللبــــان ٣٣ .

الدراسات الاستشراقية حول الإسلام ، الأمر الذي يجعلنا ـ نحن المسلمين ـ نقف من هذه الدراسات موقف الحذر ، ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع . فالكثير من النظريات والآراء التي يقولون بها مبنية على افتراضات لا أساس لها وتخمينات لا سند لها .

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا ـ نحن المسلمين ـ في الرأي حول الإسلام ، وإنما الغريب أن يتفقوا معنا في الرأي ، وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه ﷺ يختلف عن المنطلق الذي يصدر عنه تفكير المسلمين . ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة . فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التي تنظر إلى الإسلام على أنه دين سماوي ختم به الله الرسالات السماوية ، وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، وأن القرآن الكريم وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين . وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لبعضهم ممن تحول إلى الإسلام . وهذا التحول إلى الإسلام يعني في الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقي .

ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام . ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم . فعندما أرفض وجهة نظر معينة لا بد أن أبيِّن للقارىء أولاً وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها ثم لي بعد ذلك أن أوافقها أو أخالفها .

وعلى هذا الأساس نقول : إن الكيان الإسلامي كله يقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذي تلقى القرآن وحياً من عند الله . ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الإسلام حتى يستطيع القارىء أن يفهم سر قوة هذا الإيمان في تاريخ المسلمين[22] ، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين في معتقدهم وتصوراتهم أو

---

(٢٢) د . حسين مؤنس (المرجع السابق) ٥٦٩ .

يوافقهم « غير أن هذا المنهج المنطقي والطبيعي في العرض قلما يتبع مع الأسف ، وكثيراً ما يحدث العكس . فيتعرض القارىء نتيجة لذلك ـ ما لم يكن على علم ـ إلى شيء من الإيحاء برأي معين ، أو يتعرض على الأقل إلى اختلاط في الأمور يجعله عاجزاً عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رأي الكاتب . وهكذا نجد كثيراً من المستشرقين الذين يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة يهملون ملاحظة مبادىء أولية للمنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخية . فهم يؤكدون مثلاً أن القرآن من إنشاء محمد . ثم يذهبون مذهباً بعيداً في تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد ، وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق »[٢٣] .

وقد يكون صحيحاً القول بأن ألوان التحامل القديم على الإسلام قد خفت حدتها إلى درجة كبيرة منذ مطلع هذا القرن ، ولكنها للأسف الشديد لا تزال تعيش قوية ، ولا تزال هناك فئة من الباحثين الغربيين المهتمين بدراسة الإسلام تحرص حتى اليوم على نشر ألوان التحامل القديم في العالم الغربي على نطاق واسع بأساليب مختلفة .

فإذا عبر المسلمون عن استيائهم إزاء التحامل الظالم على الإسلام من جانب المستشرقين فإن هذا يعني في نظر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الأمور فهمًا علمياً ، فالمستشرقون ليس لديهم أحكام مسبقة كما نعتقد ، والحقائق التي يتوصلون إليها تتسم بالحياد والموضوعية والعلمية[٢٤] .

---

(٢٣) طيباوي (الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي) ٥٩٢/٥٩١ . انظر أيضاً ص ٥٨٨ .

(24) H. A. Fischer-Barnicol: Die islamische Revolution, Stuttgart 1981, p. 60.

ومعنى ذلك أن علينا أن نتقبل ما يقوله السادة المستشرقون عنا وعن ديننا ونحن صاغرون ، وليس لنا حق مجرد حق التعبير عن الاستياء وإلا فنحن متخلفون جاهلون ، قاصرون عن فهم الأمور فهمًا علمياً .

ولست أدري من الذي ندب مثل هؤلاء الناس المتغطرسين لتنويرنا ؟ ومن أعطاهم حق الوصاية الفكرية علينا ؟

أليس هذا يعد تدخلاً سافراً في أخص أمورنا الذاتية ؟ وهل يقبل هؤلاء أن نتدخل في أي أمر من أمورهم صغر أم كبر ؟!

نمـــــــــــاذج

من آراء المســــتشرقين حول الإســـــلام

القـــــــــرآن :

[١] مصـــــــــدر القـــــــرآن . . .

القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول الذي تقوم على أســـاسه عقائد الدين الإسلامي وشريعته ، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه . فإذا ثبت أنه وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا ومن خلفه ، فإن الإيمان به يصبح أمراً لا مفر منه .

ومن أجل ذلك اتجهت جهود المناهضين للإسلام قديماً وحديثاً إلى محاولة زعزعة الاعتقاد في صحة القرآن وفي مصدره . وقد بذل الوثنيون جهدهم في مقاومة فكرة أن القرآن وحي من عند الله . فزعموا أنه ﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . . . ﴾ (الفرقان : ٤) وأنه ﴿ . . . أَسَـــاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان : ٥) وأن محمداً ﴿ . . . يُعَلِّمُهُ بَشَـــرٌ . . . ﴾ (النحل : ١٠٣) ، أو أن القرآن قول ساحر أو كاهن . وكانوا يهدفون من وراء ذلك كله إلى إبطال القول بأنه وحي السماء إلى محمد ﷺ لهداية البشر .

وقد حذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام في موقفهم من القرآن حذو مشركي مكة . وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس وحياً من عند الله وإنما هو من تأليف محمد ﷺ . ورددوا أحياناً الاعتراضات التي قال بها الوثنيون قديماً رغم دحض القرآن لها .

يقول « جورج ســيل G. Sale » في مقدمة ترجمته الانجليزية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٧٣٦م ما يأتي :

« أما أن محمداً كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل ، وإن كان من المرجح ـ مع ذلك ـ أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة . وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك »[٢٥] .

وقد كان « جـــورج ســـيل » ممن لهم اهتمام بالغ بالإسلام لدرجة أنه وصف بأنه نصف مسلم . وقد صادفت المقدمة التمهيدية للترجمة التي جزم فيها بتأليف محمد للقرآن نجاحاً عظيماً في أوروبا ، الأمر الذي أدى بمستشرق آخر هو « كاسميرسكي » أن يجعل من مقدمة « ســـيل » مقدمة لترجمته الفرنسية لمعاني القرآن التي صدرت عام ١٨٤١م . وقد استطاعت هذه المقدمة أن تثبت وجودها زمناً طويلاً جداً كمصدر علمي موثوق به لدى المستشرقين من حيث اشتمالها على عرض شامل للدين الإسلامي[٢٦] .

وقد أصبحت قضية تأليف محمد للقرآن لدى المستشرقين « أمراً لا يقبل الجدل » ، كما يقول « سيل » ، غير أن من المستشرقين من يذكر ذلك صراحة كما فعل « ســـيل » من قبل ، وكما فعل « رينان » من بعده ، إذ اعتبر الرسالة المحمدية امتداداً طبيعياً للحركة الدينية التي كانت سائدة في عصر محمد ﷺ دون أن تشتمل هذه الرسالة على أي جديد[٢٧] . ومنهم من يذكر ذلك

(٢٥) نقلاً عن اللبان ٤٤ .

(٢٦) انظر بحثنا (الإسلام في الفكر الثقافي) المنشور في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر ص ١٠٩ .
انظر ايضاً : القرآن : نزوله ، ترجمته وتاثيره . تاليف « بلاشير » وترجمة رضا سعاده . ص ١٩ ـ دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤ .

(٢٧) د . محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٠ . دار القلم بالكويت ١٩٧٤ .

بأسلوب أقل حدّة وبطريق غير مباشر ، وبعض المستشرقين المعاصرين ينحو هذا المنحى ، الأمر الذي يجعل رأيهم يبدو وكأنه استنتاج علمي .

وإذا كان محمد هو مؤلف القرآن فإن الفرية الاستشراقية تحاول أن تكون محبوكة بقدر الإمكان ، وذلك ببيان المصادر التي اعتمد عليها محمد في كتابته للقرآن . ويذهب الخيال الاستشراقي في هذا الصدد كل مذهب لإثبات مزاعمه .

ويرى « ريتشـــارد بل Richard Bell »[٢٨] مؤلف كتاب مقدمة القرآن أن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس ، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص . فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية . وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة ، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل[٢٩] .

ويذهب المستشرق « لـــوت » إلى أن النبي ﷺ مدين بفكرة فواتح السور من مثل : حم ، وطسم ، والمّ . . . إلخ . لتأثير أجنبي ، ويرجح أنه تأثير يهودي ، ظناً منه أن السور التي بدئت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها النبي ﷺ لتأثير اليهود . ولو دقق في الأمر لعلم أن سبعاً وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية ، وأن اثنتين فقط من هذه الســـور مدنية وهما ســـورتا البقرة وآل عمران[٣٠] .

(٢٨) من رجال الدين واستاذ اللغة العربية بجامعة ادنبره ، وقد صرف سنين كثيرة في دراسة القرآن وتاريخه . وقد اكد في اول كتبه عن القرآن العلاقات النصرانية بالنبي ﷺ . وقد صدرت ترجمته الانجليزية للقرآن في جزاين في عامي ١٩٣٧ ، ١٩٣٩ . (انظر العقيقي ٢/ ٩٣ ، ٩٤) .

(٢٩) اللبـــــان ٤٤/ ٤٥ .

(٣٠) راجع نظرات استشراقية في الإسلام للدكتور غلاب ص ٤١/ ٤٢ .

وعن التأثير النصراني يقـــول « بـــارت » :

« لقد كانت معلومات الناس في مكة ـ في عصر النبي ـ عن النصرانية محدودة وناقصة ، ولم يكن النصارىٰ العرب سائرين في معتقداتهم في الاتجاه الصحيح . ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة . ولولا ذلك لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التي تنكر صلب المسيح وتذهب إلى أن نظرية التثليث النصرانية لا تعني الآب والابن وروح القدس ، وإنما تعني الله وعيسى ومريم . وعلى أية حال فإن المعارف التي استطاع محمد أن يجمعها عن حياة المسيح وأثره كانت قليلة ومحدودة . وعلى العكس من ذلك كان محمد يعرف الشيء الكثير عن ميلاد عيسى وعن أمه مريم[٣١] .

وما يقصد أن يقوله « بـــارت » هنا واضح وهو أن المعلومات التي وردت في القرآن عن النصرانية وعن المسيح وأمه كانت المعلومات الشائعة آنذاك إما خاطئة أو محدودة . فمحمد إذن هو مؤلف القرآن .

ويزعم المستشرقون أيضاً أن محمداً تعرف على النصرانية من بحيرىٰ الراهب في رحلته التجارية إلى الشام . وقد تمثل محمد في نفسه ما سمعه من بحيرىٰ الراهب[٣٢] وما عرفه من أتباع اليهودية ، وخرج على الناس يعلن دينه الجديد الذي لفّقه من الدينين الكبيرين .

(٣١) انظر كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٦٧/ ٦٨ .

(٣٢) لا يزال بعض المستشرقين يصر على تضخيم اثر مقابلة الوسول ﷺ لبحيرىٰ الراهب رغم انه لا يوجد لذلك سند صحيح . وقد قال هوارت في بحث له حول هذا الموضوع : « لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرىٰ في الدور المسند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد قصة من نسج الخيال » . انظر : د . دراز : مدخل ص ١٣٤ هامش ١ .

وهذه كلها مزاعم واهية لا حظَّ لها من العلم ولا سند لها من التاريخ ، وإنما هي تخمينات وافتراضات يضعها أصحابها كما لو كانت « حقائق ثابتة لا تقبل الجدل » .

وقد تناول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في دراسته القيمة (مدخل إلى القرآن) جميع الافتراضات المتعلِّقة باحتمال وجود مصدر بشري للقرآن . وناقشها مناقشة علمية ، وأظهر زيفها وبطلانها ، وانتهى إلى القـــول بـــأن :

« جميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح له (أي للنبي ﷺ) فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة . ورغم الجهد الذهني الذي نبذله لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته ، فإنه يتعذر علينا اعتبارها تفسيراً كافياً لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون . . . إلخ »[٣٣] .

فلم يبق إلاَّ أنه وحي الله لنبيه ﷺ الذي أرسله رحمة للناس أجمعين .

ويحق لنا أن نسأل الذين يجادلون في مصدر القرآن ويرون أنه مأخوذ من النصرانية واليهودية أو من البيئة العربية .

ما المانع أن يكون القرآن وحياً أصيلاً مأخوذاً من النبع نفسه الذي اغترفت منه الديانات السماوية الصحيحة ؟

ما المانع أن يكون الإسلام هو الحلقـة الأخيرة من حلقات الوحي الإلهي الذي أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدىٰ تاريخ البشرية ؟

لماذا تحرمون على الإسـلام ما تبيحونه لليهودية والنصرانية ؟

(٣٣) د . دراز : مدخل ص ١٦٥ .

هل هو التعصب الأعمى ، أم هي الكراهية لهذا الدين الذي جاء مصححاً لما طرأ على الديانات السابقة من أوهام وأباطيل ، وكاشفاً لوجه الحق فيها ؟

هل مبدأ جواز اتصـال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلم به أم لا ؟!

إنه إذا كان هذا المبدأ مسلماً به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والنصرانية وتمنعه عن الإسلام ، وإذا لم يكن مسلماً به فلا مجال للديانات جميعها ؟

لقد جاء القرآن الكريم بما هو أعلى وأوسع وأكمل من كل المعلومات التي كانت لدىٰ بحيرىٰ الراهب ولدى كل النصارىٰ واليهود في شتى بقاع العالم ، وجاء القرآن مصدقاً لما نزل على موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من حيث كون الكتب التي نزلت عليهم هي في الأصل وحي من عند الله ، كما جاء القرآن مهيمناً على هذه الكتب وحاكماً عليها ، فذكر القرآن أن اليهود والنصارىٰ أوتوا نصيباً من الكتاب ، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، وأنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه ، كما بيَّن القرآن الكريم كثيراً من القضايا الكبرى التي كانت موضع خلاف بينهم في العقائد والأحكام والأخبار[٣٤] .

وهناك العديد من الأمثلة التي خالف فيها القرآن ما ورد من أخبار في كل من العهد القديم والجديد .

فهل أخذ محمد ﷺ ذلك من الرهبان في رحلته التجارية إلى الشام ؟ وهل كان كفار مكة يسكتون عن ذلك لو عرفوا أن محمداً استقى معلوماته من اليهود أو النصارىٰ ؟

لقد كانوا يلجأون إلى أوهى المزاعم فلماذا سكتوا عن زعم تلقي محمد عن اليهود والنصارىٰ ؟

لقد زعم الزاعمون أن الذي يعلِّم محمداً هو عبد رومي كان يصنع السيوف في مكة ، فرد عليهم القرآن الكريم زعمهم قائلاً :

(٣٤) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا (القاهرة ١٣٥٤هـ) ص ١٠٩ .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (النحل : ١٠٣) .

وحتى المعلومات التي ذكرت في القرآن وكان لها أصل في كتب اليهود أو النصارىٰ لم يكن محمد ولا قومه يعلمون شيئاً عنها : ويشير القرآن إلى ذلك بعد قصة نوح مثلاً :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود : ٤٩) . وبعد قصة يوسف يقول القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف : ١٠٢) .

كما أن هناك من أخبار القرآن ما لم يكن يعرفه أهل الكتاب . . فقد ذكر القرآن الكريم بعد قصة زكريا وولادة مريم عليهما السلام وكفالته لها قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[٣٥] (آل عمران : ٤٤) .

فمن أين أخذ محمد ﷺ كل ذلك ؟

إنه وحي السماء ، فالإسلام ليس ديناً تابعاً لأي دين آخر ، ولكنه الدين الذي أراد الله أن يكون خاتم الأديان ، وآخر حلقة في قصة اتصال السماء بالأرض لهداية البشر ، وقد أعلن القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى :

﴿ . . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . . . ﴾ (المائدة : ٣) .

ونود في هذا الصدد أن نذكر السادة المستشرقين بأن مهد اليهودية والنصرانية والإسلام هو الشرق . . فالشرق هو مهبط الرسالات

(٣٥) (راجع : الوحي المحمدي ص ١٠٦) .

السماوية ، وعلى أرضه سار رسل الله يحملون رسالته إلى الناس جميعاً ، والمقياس لهذه الأديان جميعاً لا بد أن يكون مقياساً واحداً لأن مصدرها واحد . ولكن هذا المقياس الذي نعنيه لن يكون بالتأكيد ذلك المقياس الذي يريد أن يطبقه المستشرقون على علاقة هذه الأديان بعضها ببعض ، وهو مقياس التأثير والتأثر كما لو أن الأمر يدور حول شيء إنساني يخضع لهذا المقياس الإنساني . ولهذا نحن نرفض ـ ومعنا كل الحق ـ منهج المستشرقين في دراسة الإسلام لأنه منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبي ، ولأنه منهج يقصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية ، ويحاول أن يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية .

[٢] صحة النص القرآني :

بعد أن تعرفنا على مزاعم المستشرقين في التشكيك في مصدر القرآن نأتي الآن للحديث عن نقطة أخرىٰ تسير في اتجاه التشكيك نفسه ، ولكنها في هذه المرة تشكك في صحة النص القرآني . وكأنهم بذلك يريدون أن يردوا على القرآن بالسلاح نفسه . فقد قرر القرآن أن التوراة والإنجيل قد أصابهما التحريف والتبديل .

وقد تكلم المستشرقون كثيراً في موضوع القراءات بالأحرف السبعة[٣٦]

(٣٦) بناءً على ما ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . وقد ورد في بعض الروايات الضعيفة التي أخرجها الطبري وغيره عن أبي هريرة زيادة في هذا الحديث تقول : « فاقرؤوا ولا حرج ، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة » . وعلى مثل هذه الروايات الضعيفة المرفوضة يعتمد المستشرقون في تشكيكهم في صحة النص القرآني ، وقد رفض الشيعة حديث الأحرف السبعة من أساسه (راجع البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ج ١ ص ٢١٢ ، القاهرة ١٩٥٦م ؛ ومناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني ج ١ ص ١٣٧ (الطبعة الثالثة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ) .

محاولين إثبات أن القراءة كانت حرة طليقة ، الأمر الذي جعل تعرض نص القرآن للتغيير أمراً لا مفر منه . وهم بذلك يوهمون بأن التدوين وقع في جو هذه الحرية ، وفي هذا الجو تم تسجيل قراءات مختلفة . وهذه القراءات التي نجمت عن ذلك لم تكن هي الصورة التي ورد بها الوحي أساساً . ونتيجة ذلك كله هي القول بحدوث تغيير في النص القرآني .

وقد روَّج بعض المستشرقين لفكرة (القراءة بالمعنى) مما يعطي للمزاعم السابقة سنداً تعتمد عليه . فقد ظهرت هذه النظرية في زعم بعضهم في العهد الأموي وسادت الجو وتلقاها الناس بالقبول ، فلم يكن نص القرآن بحروفه بالنسبة لبعض المؤمنين هو المهم ولكن المهم كان هو روح النص . ومن هنا ظل اختيار الوجه (الحرف) في القراءات التي تقوم على الترادف المحض أمراً لا بأس به ولا يثير الاهتمام . وهكذا يمكن أن يخضع تحديد النص لهوى كل إنسان .

إن اختلاف القراءات أمر ثابت لا ننكره ، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أيضاً أن القرآن الكريم كان وحياً باللفظ والمعنى معاً . ومن أجل ذلك كان الرسول ﷺ حريصاً كل الحرص على تسجيل الوحي فور نزوله والعناية بحفظه في السجلات التي سطر فيها[٣٧] . وليس صحيحاً ما يردده « بلاشير » من أن فكرة تدوين الوحي لم تنشأ إلا بعد إقامة النبي ﷺ في المدينة ، وأن التدوين كان جزئياً وناتجاً عن جهود فردية ومثاراً للاختلاف[٣٨] .

فالثابت أن فكرة تدوين الوحي كانت قائمة منذ نزوله ـ وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحي ليدونوه . وقد بلغ عدد كتَّاب الوحي ـ كما يذكر الثقات من العلماء ـ تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة ،

(٣٧) اللبان ٤٨ وما بعدها .
(٣٨) بلاشير : القرآن ص ٢٨/ ٢٩ .

ومعاوية ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت[٣٩] .

وأما ما يتعلق بمسألة الأوجه السبعة في القراءة فإن الأمر فيها لم يكن متروكاً لأهواء الناس ، وإنما كان محكوماً بما يقرأه الرسول ﷺ للناس من أوجه للقراءة كان القصد منها التخفيف على الناس في أول الأمر « فأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه ، أي على طريقته في اللغة ، إلى أن انضبط الأمر في آخر العهد وتدربت الألسن ، وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة فعارض جبريل النبي ﷺ القرآن مرتين في السنة الأخيرة ، واستقر على ما هو عليه الآن » . وهذا ما عليه أكثر علماء المسلمين »[٤٠] .

والواقع الذي عليه المسلمون منذ أربعة عشر قرناً هو تمسكهم الشديد بالمحافظة على الوحي القرآني لفظاً ومعنى ، ولا يوجد مسلم يستبيح لنفسه أن يقرأ القرآن بأي لفظ شاء ما دام يحافظ على المعنى . وليبحث المستشرقون اليوم في أي مكان في العالم عن مسلم يستبيح لنفسه مثل ذلك وسيعييهم البحث ، فلماذا إذن هذا التشكيك في صحة النص القرآني وهم يعلمون مدى حرص المسلمين في السابق واللاحق على تقديس نص القرآن لفظاً ومعنى ؟

إنهم يبحثون دائماً ـ كما سبق أن أشرنا ـ عن الآراء المرجوحة والأسانيد الضعيفة ليبنوا عليها نظريات لا أساس لها من التاريخ الصحيح ولا من الواقع . فنحن المسلمين قد تلقينا القرآن الكريم عن الرسول ﷺ ، وهو بدوره تلقاه وحياً من الله . ولم يحدث أن أصاب هذا القرآن أي تغيير أو تبديل على مدى تاريخه الطويل . وهذه ميزة فريدة انفرد بها القرآن وحده من بين الكتب السماوية كافة ، الأمر الذي يحمل في طياته صحة هذا الدين الذي ختم به الله سائر الديانات السماوية .

(٣٩) د . دراز : مدخل ص ٣٤ .
(٤٠) راجع البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢١٣ .

وفي هذا الصدد نورد ما ذكره « رودي بارت » في مقدمة ترجمته الألمانية للقرآن ـ وكأنه يرد على زملائه الذين راحوا يشككون في صحة النص القرآني ـ يقــول « بــارت » :

« ليس لدينا أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك أية آيــة في القرآن كله لم ترد عن محمد »(٤١) .

ويتصل بالتشكيك في صحة القرآن القول بأن لغة القرآن « لا تتميز عن لغة الأدب الدنيوي بعصمة يقينية . وهذا أمر يجده المرء في عدم اتفاق أصحاب النبي فيما بينهم على تبعية بعض فقرات معينة للقرآن ، فابن مسعود ـ مثلاً يرى أن سورة الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن على الرغم من أن هذه السور تعد من أشهر المشهورات »(٤٢) .

وهذا الرأي المنسوب إلى ابن مسعود باطل من أساسه . وقد رفضه علماء المسلمين .

يقــول الإمــام فخر الدين الرازي :

« نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ، وهو أمر في غاية الصعوبة ، لأنَّا إن قلنا : إن النقل المتواتر كان حاصلاً في عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر ، وإن قلنا : لم يكن حاصلاً في ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر في الأصل » .

ومن أجل ذلك يقول الفخر الرازي بأن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل باطل .

(41) Rudi Paret: Der Koran. Uebersetzung. Stuttgart, 1980, p. 5.

(42) Hermann Stieglecker: Die Glaubenslehren des Islam, Paderborn, 1962, p. 400.

وكذلك يقول القاضي أبو بكر : إنه لم يصح عن ابن مسعود أن هذه السور ليست من القرآن . أما الإمام النووي فيقول في شرح المهذب :

« أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئاً كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » .

ويقول ابن حزم في كتاب القدح المعلى تتميم المحلى :

« هذا كذب على ابن مسعود وموضــوع ، وإنما صح عنه (أي عن ابن مسعود) قراءة عاصم عن زرعان وفيها المعوذتان والفاتحة »(٤٣) .

وقد ذكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن(٤٤) أنه لو صح أن ابن مسعود كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك ، وكان يظهر وينتشر . فقد تناظروا في أقل من هذا ، وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل ، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه ؟ وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه في المصحف ، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة في الإجماع المقرر والاتفاق المعروف ؟

وهكذا يتضح لنا أن هذا الرأي المزعوم لا يستحق الوقوف عنده أو الاهتمام به على النحو الذي يسلكه المستشرقون ، فلم يحدث في تاريخ المسلمين أن كان لأمثال هذه الآراء الباطلة أي تأثير على الإطلاق في توجيه معتقداتهم ، ولم يذكر لنا التاريخ أن هناك طائفة من المسلمين تبنت هذا الرأي الباطل المنسوب إلى ابن مسعود ، وعلى ذلك فلا يترتب عليه أدنى شك في تميز لغة القرآن عن لغة الأدب الدنيوي المعهود .

(٤٣) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٧٩ وما بعدها ـ طبعة الحلبي ١٩٥١م .

(٤٤) ص ٢٩٢ طبعـة ١٩٦٣م .

فلغة القـرآن لها خصوصية التفرد . وقد عجزت فصاحة العرب وبلاغتهم ـ وهم أصحاب الفصاحة والبلاغة ـ عن محاكاة لغة القرآن . وقد تحداهم الوحي أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، ولكنهم عجزوا عن قبول التحدي الذي لا يزال وسيظل قائمًا إلى أن تقوم الساعة . فلو كان القرآن غير خارج عن العادة لأتوا بمثله أو عرضوا من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه . فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظمهم وزالت أطماعهم عنه(٤٥) .

فإذا جاء مستشـرق مثل « دوزي » [ت ١٨٨٣] وأطلق عبارات مريضة عن القرآن تقول بأنه كتاب ذو ذوق رديء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل ، وفيه إطناب بالغ وممل إلى حد بعيد(٤٦) . . إذا قال « دوزي » ذلك فلا يأخذنا العجب أن يصدر منه ومن أمثاله مثل هذا الهراء ، ولكنا فقط نتسـاءل : من أين له الأهلية لإصدار مثل هذا الحكم على القرآن الكريم ؟ إن العلم الذي يتحدث باسمه لا يمكن أن يعطي له مثل هذا الحق على الإطلاق . وبالتالي فهي الأحقـاد والنزعات والأهواء التي تدفعه إلى ذلك . ومن هذا شأنه لا يمكن أن يصل إلى إدراك ما ينطوي عليه القرآن الكريم من إعجاز وفصاحة وبلاغة أجبرت المشركين على الاعتراف بها ، فراح مندوبهم الوليد بن المغيرة يردد بعد سماعه للقرآن « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته » .

وشـتان بين موقف « دوزي » وموقف « الوليد بن المغيرة » ! فالوليد بن المغيرة قال ما قال عن تذوق سليم لبلاغة القـرآن ، أما « دوزي » فمن أين له مثل هذا التذوق وهو مهما كانت براعته في العربية ـ غريب عن هذه اللغـة وأجنبي عن روحها وإن برع في معرفة ألفاظها ؟!

(٤٥) انظر كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٥٣ وما بعدها .
(٤٦) انظر بحثنا : الإسلام في الفكر الاستشراقي ، ص ١١٨ .

[٣] خطـــورة القـــرآن . . .

القرآن الكريم كتاب مقلق للغربيين ، ومحير لهم ، ومبلبل لأفكارهم . يقول « بلاشـير » :

« قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن »(٤٧) .

ولكن الأمر في الواقع ليس مجرد قلق أو حيرة أو بلبلة فكرية ، وإنما الأمر أبعد من ذلك بكثير ، إنه الشعور بخطورة هذا الكتاب . وقد كان للاستشراق دوره في التحذير من خطورة القرآن على العالم الغربي ، فقد تكفل بالكشف عن أخطار القرآن طائفة من المستشرقين الذين أخضعوا بحوثهم العلمية للأهواء الشخصية أو الأهداف السياسية والدينية ، فأعماهم ذلك عن الحق وأضلهم عن سواء السبيل .

وعندما تدرس هذه الفئة القرآن الكريم دراسة عميقة ، وتتأمل مبادئه الأساسية ، وتتبين مزاياه الفريدة ، وما فيه من دعوة إلى الترابط ، والاعتصام بحبل الله المتين ، والتعاون على البر والتقوى ، والتحذير من الشر أو الظلم ، والنهي عن السخرية بغيرنا أو التجسس عليه ، والتحذير من الغيبة والنميمة ، والحض على الصدق والأمانة ، والعدل والوفاء بالعهد ، والحث على طلب العلم والتخلص من الجهل ـ عندما يتبينون ذلك كله يحاولون طمس هذه الحقائق ، وإبعاد المسلمين عنها ، ويسارعون إلى أولي الأمر في بلادهم من المستعمرين القدامى أو الجدد ، ويوحون إليهم بأن هذا القرآن كتاب خطير ، لأنه اشتمل على مبادىء تقيم الدنيا وتقعدها ، وإذا

(٤٧) بلاشـير : القرآن ص ٤١ .

تحقق فهمها وتطبيقها ساد أهله العالم كله وتحكموا في مصيره .

وهذا يعني أن المسلمين إذا عرفوا كتابهم حق المعرفة ، وطبقوه تطبيقاً تاماً ، فالويل كل الويل للاستعمار القديم والجديد . إذ أنه لن تقوم له قائمة بعد الساعة التي تتم فيها هذه المعرفة ، ويتحقق فيها ذلك التطبيق . ومن ثم يتبين ذلك المجهود الذي يبذله المستعمرون في أن يبقى القرآن مجهولاً ، وأن تظل مبادئه مهجورة بعيدة عن التنفيذ(٤٨) .

ومن هنا نعرف سبب هلع الغرب وفزعه الذي لا حد له عندما يشعر بوجود تيار إسلامي في أي مكان في العالم الإسلامي ، أو ما يعرف الآن بالصحوة الإسلامية ، التي تعني - لو أحسن ترشيدها - عودة إلى هذا القرآن الخطير ، الذي يزرع العزة في قلوب أبنائه ، ويرفض أن يكونوا أذلاء لأعدائهم . وهذا يعني أيضاً انطلاق المارد الإسلامي من سجنه ليثبت وجوده مرة أخرى ، الأمر الذي يهدد أطماع ومصالح الغرب في الشرق الإسلامي .

وتقوم وسائل الإعلام في الشرق والغرب بتصوير الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي بالتطرف والتشدد والجمود والرجعية والتعصب والإرهاب وكل ما في القاموس من ألفاظ من هذا القبيل . ويعمل الغرب والشرق مجتمعين على ألا تقوم للإسلام قائمة مرة أخرى ، وهذا هدف لا خلاف عليه بين كلا المعسكرين ، ولكن المسلمين لا يدركون هذه الحقيقة إدراكاً تاماً .

وتتجه الجهود إلى تحويل أنظار المسلمين إلى أن طريق الخلاص هو في اتباع سبيل الغرب العلماني . ولهذا تنطلق الدعوة من جانب بعض المستشرقين إلى إصلاح الإسلام . فالإسلام في زعمهم دين جامد لم يعد مسايراً لروح العصر . ومن أجل ذلك فهو في حاجة إلى إصلاح جذري . وفي ذلك يقول « ك . كراج K. Cragg » رئيس تحرير مجلة العالم الإسـلامي :

(٤٨) د . محمد غلاب : نظرات استشراقية في الإسلام ص ٣٢ ، ٣٣ .

« إن على الإسلام إمّا أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة »(٤٩) .

وهذه دعوة يوجهها إلى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغي عليهم أن يفعلوه في دينهم ، وهذا الإصلاح المزعوم يمثل محاولة تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام ، وجعل الإسلام أقرب إلى النصرانية بقدر الإمكان .

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن الإسلام يشتمل على أصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئاً ، وهي عقائد الإسلام الأساسية ، ويشتمل على فروع وهي قابلة للتغيير حسب المصلحة الإسلامية ، وأن الإصلاح الذي نفهمه نحن المسلمين هو إصلاح للفكر الإسلامي الذي هو في حاجة إلى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمـة في إطار التعاليم الإسلامية . ويعبر الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي عن ذلك بأنه « مراجعـة لا رجـوع » .

ولكن الدعوة إلى إصلاح الإسلام أو تحديثه كما يقال أحياناً ليست بهذا المفهوم ، وإنما هي عبارة عن تفريغ الإسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع ، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه في ذلك شأن الديانة النصرانية .

ويتورط بعض من أبناء المسلمين في حمل لواء الدعوة إلى إصلاح الإسلام كما يفهمه المستشرقون . ومن أحدث الكتب في هذا الشأن كتاب صدر في ألمانيا الغربية منذ عامين (عام ١٩٨١م) بعنوان : « أزمـة الإسلام الحديث » لمؤلف عربي مسلم - يعمل أستاذاً في إحدى الجامعات الألمانية - يدعو فيه بحماس إلى الأخذ بالأنموذج الغربي في الإصلاح المتمثل في جعل الدين مجرد

(٤٩) نقلاً عن طيباوي : (انظر الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي ص ٦١٢ . انظر ايضاً ص ٦٠٨ ، ٥٥٦) .

تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية ، فذلك في نظره هو الحل الوحيد لأزمة الإسلام . وبذلك يتم إبعاد الدين كلية عن التدخل في شؤون الحياة حسب الأنموذج العلماني الغربي .

وهكذا نوفر نحن أبناء المسلمين على المستشرقين والمنصِّرين بذل الجهد في هذا السبيل ونتولى نحن الدعوة إلى تحقيق الأهداف التي عاشوا قروناً طويلة يعملون من أجلها دون جدوى .

وقد وصل الأمر في بعض البلاد الإسلامية العلمانية إلى معاملة الفكر الإسلامي معاملة الفكر الماركسي من حيث كونها خطراً تجب مكافحته وتعقب الداعين إليه .

وقد قام الاستعمار بالتخطيط المدروس لإضعاف العالم الإسلامي وإبعاده عن مقوماته الإسلامية ، ومنع أية محاولة لجمع شمل المسلمين مرة أخرى ، ووجد الاستعمار من بين أبناء العالم الإسلامي أناساً ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أدوات لتحقيق أهدافه . ونحن لا نلقي هنا القول على عواهنه ، وإنما هذا ما تنطق به الوثائق السرية الاستعمارية نفسها . فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني (أورمسبي غو) لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٨م ما يأتي :

« إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الامبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليس الامبراطورية وحدها ، بل فرنسا أيضاً ، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة ، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة .

إن سياستنا الموالية للعرب في الحرب العظمى (يعني الأولى) لم تكن مجرد نتائج لمتطلبات (تكتيكية) ضد القوات التركية ، بل كانت مخططة أيضاً لفصل السيطرة على المدينتين المقدستين مكة ، والمدينة عن الخلافة العثمانية التي كانت قائمة آنذاك .

ولسعادتنا فإن كمال أتاتورك لم يضع تركيا في مسار قومي علماني فقط ، بل أدخل إصلاحات بعيدة الأثر ، أدت بالفعل إلى نقض معالم تركيا الإسلامية .

السنة النبوية ...

السنة النبوية هي الأصل الثاني للإسلام . وقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يبلغ رسالته إلى الناس في قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... ﴾ (المائدة : ٦٧)

ولكن الأمر لم يكن مجرد تبليغ آلي ، وإنما هو تبليغ مصحوب بالتبيين ، كما ورد في قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ (النحل : ٤٤) . وفي قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ... ﴾ (النحل : ٦٤) .

وقد فعل الرسول ﷺ ما أمره الله به ، فكانت سنته المتمثلة في أقواله وأفعاله وتقريراته بالنسبة للقرآن بمثابة « تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره »[50] . وبذلك يكون الارتباط بين القرآن والسنة ارتباطاً لا يتصور

(٥٠) راجع الموافقات للشاطبي ج ٤ ص ١٢ .

أن ينفصم في يوم من الأيام . وقد نبَّه النبي ﷺ على ذلك حين قال :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي)[51] .

ومن أجل ذلك اهتم المسلمون اهتماماً عظيمًا بالسنة بوصفها الأصل الثاني للإسلام . وقد كان هذا الفهم يعد من الأمور البديهية لدى صحابة رسول الله ﷺ . . فعندما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل والياً إلى اليمن سأله : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي[52] .

وقد أراد المستشرقون ـ بعد محاولاتهم الفاشلة للتشكيك في القرآن الكريم من جوانب مختلفة ، وبعد أن أعياهم البحث ولم يكن لهذه المحاولات أي أثر إيجابي لدى المسلمين المتمسكين بقرآنهم ، وتبين أن هذه المحاولات لم تكن إلا كما قال الشاعر العربي :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

أراد المستشرقون أن يوجهوا محاولات التشكيك إلى ناحية أخرىٰ ، أي إلى الأصل الثاني للإسلام وهو السنة ، مع الاستمرار في محاولاتهم السابقة الفاشلة . وأول مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوي كان المستشرق اليهودي « جولد تسيهر » الذي يعده المستشرقون أعمق العارفين بالحديث النبوي .

ويقول عنه كاتب مادة (الحديث) في دائرة المعارف الإسلامية :

« إن العلم مدين دَيناً كبيراً لما كتبه « جولد تسيهر » في موضوع الحديث ، وقد كان تأثير « جولد تسيهر » على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية أعظم مما

(٥١) رواه الحاكم في مستدركه عن ابي هريرة .

(٥٢) راجع جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد البر ج ٢ ص ٦٩ (المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨هـ) .

كان لأي من معاصريه من المستشرقين ، فقد حدد تحديداً حاسمًا اتجاه وتطور البحث في هذه الدراسات[53] » .

ويلخص « بفانوللر » عمل « جولد تسيهر » في هذا المجال فيقول :

« لقد كان « جولد تسيهر » أعمق العارفين بعلم الحديث النبوي . وقد تناول في القسم الثاني من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولاً عميقاً . وراح ـ بما له من علم عميق ، واطلاع يفوق كل وصف ـ يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي . . . وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك في الحديث ، ولم يعد يثق فيه مثلما كان « دوزي » لا يزال يفعل ذلك في كتابه (مقال في تاريخ الإسلام) . وبالأحرى كان « جولد تسيهر » يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرن الأول والثاني . فالحديث بالنسبة له لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول : عهد طفولته ، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام . ويقدم « جولد تسيهر » مادة هائلة من الشواهد لمسار التطور الذي قطعه الإسلام في تلك العصور التي تم فيها تشكيله من بين القوى المتناقضة ، والتباينات الهائلة حتى أصبح في صورته النسقية . . . ويصور « جولد تسيهر » التطور التدريجي للحديث ، ويبرهن

(53) Fueck, op.cit. p. 231.

بأمثلة كثيرة وقاطعة كيف كان الحديث انعكاساً لروح العصر ، وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة ، وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات في الإسلام تبحث لنفسها من خلال ذلك عن إثبات لشرعيتها بالاستناد إلى مؤسس الإسلام ، وأجرت على لسانه الأقوال التي تعبر عن شعاراتها »[٥٤] .

وهكذا تم اختراع كم هائل من الأحاديث في العصر الأموي عندما اشتدت الخصومة بين الأمويين والعلماء الصالحين ، ففي سبيل محاربة الطغيان والخروج عن الدين راح العلماء يخترعون الأحاديث التي تسعفهم في هذا الصدد ، وفي الوقت نفسه راحت الحكومة الأموية تعمل في الاتجاه المضاد ، وتضع أو تدعو إلى وضع أحاديث تسند وجهات نظرها . وقد استطاعت أن تجند بعض العلماء الذين ساعدوها في هذا المجال . . . ولكن الأمر لم يقف عند حد وضع أحاديث تخدم أغراضاً سياسية ، بل تعدّاه إلى النواحي الدينية في أمور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة . وقد استمر هذا الحال في وضع الأحاديث في القرن الثاني أيضاً[٥٥] .

هذا هو ملخص المزاعم التي روجها « جولد تسيهر » ليهدم بها الأصل الثاني للإسلام وهو السنة . ولسنا هنا في معرض الرد التفصيلي على هذه المزاعم ، فقد تكفل بعض أفاضل العلماء بذلك . ومن أهم الكتب القيمة في هذا المجال كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » للدكتور السباعي . فمن أراد التفصيل فليرجع إليه .

ولكننا هنا نود أن نشير إلى أننا لا ننكر أن هناك الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ مع أنه لا أصل لها ، وأن ذلك لم يكن في يوم من الأيام خافياً على علماء المسلمين في مختلف العصور . ولكن الأمر الذي لا شك فيه

(54) Pfannmueller, op.cit. p. 233/34.

(٥٥) د . مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ص ١٩٠/١٩١ بيروت ١٩٧٨م .

أيضاً أن علماء المسلمين الذين اهتموا بجمع الحديث النبوي لم يفرطوا إطلاقاً في ضرورة التدقيق الذي لا حدّ له في رواية الحقائق . فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخي في قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا . . . ﴾ (الحجر : ٦) .

وتتمثل هذه القاعدة في أن أخلاق الراوي تعد عاملاً هاماً في الحكم على روايته . وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواة الأحاديث النبوية . وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدي على رواة الأحاديث هو الذي تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخي[٥٦] .

ولعلماء الحديث باع طويل في نقد الرواة وبيان حالهم من صدق أو كذب . فقد وصلوا في هذا الباب إلى أبعد مدى ، وأبلوا فيه بلاءً حسناً ، وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم وما خفي من أمرهم وما ظهر ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا منعهم عن تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج . قيل ليحيى بن سعيد القطان :

أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة ؟ فقال :

لأن يكون خصمي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول : لم لم تذب الكذب عن حديثي[٥٧] .

ويروي الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين قوله :

« . . . لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » .

(٥٦) د . محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام . ص ١٦٠ وما بعدها .
(٥٧) د . السباعي : السنة ... ص ٩٢ .

ويقـــول ابن عبَّـــاس أيضاً :

« إنا كنَّا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف » .

ثم أخذ التابعون في المطالبة بالإسناد حين فشا الكذب . يقول أبو العاليــة :

« كنَّا نسمع الحديث من الصحابة فلا نرضى حتى نركب إليهم فنسمعه منهم » .

ويقول ابن المبارك : « بيننا وبين القوم القوائم » يعني الاسناد[58] .

وقد وضع رجال الحديث القواعد الدقيقة التي ساروا عليها فيمن يؤخذ منه ومن لا يؤخذ ، ومن يكتب عنه ومن لا يكتب . ويعلم « جولد تسيهر » وغيره من المستشرقين ذلك حق العلم ، ويعلمون أيضاً أن ما بذله المسلمون في توثيق الحديث لم يبذل أحد من أتباع النصرانية واليهودية عشر معشاره في سبيل توثيق العهدين القديم والجديد ، ويعلمون أيضاً أن إماماً من أئمة الحديث مثل البخاري لم يأخذ في صحيحه بعد حذف المكرر إلا حوالي أربعة آلاف حديث فقط من مجموع حوالي نصف مليون حديث قام بجمعها وغربلتها حتى انتقى منها هذه الآلاف القليلة نتيجة للمناهج العلمية الدقيقة التي وضعها المحدثون . ولم يكن المسلمون في وقت من الأوقات في حاجة إلى من يعلمهم ذلك من أمثال « جولد تسيهر » ومن ســار على نهجه .

أما دعوى أن الحديث أو القسم الأكبر منه كان نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للإسلام في القرنين الأولين ، وما ذكره « جولد تسيهر » من حديث عن طفولة الإســلام ونضوجه . . . إلخ ، فإن الواقع والتاريخ يكذب هذه المزاعم .

(58) راجع : صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ . (دار إحياء التراث العربي - بيروت) .

فقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن اكتمل الدين تماماً بنص القرآن الكريم حيث يقول :

﴿ . . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً . . . ﴾ (المائدة : ٣) .

وهذه الآية الكريمة تتضمن أيضاً إكمال السنة لأن الرسول ﷺ مُبلِّغ ومُبيِّن لما في الكتاب كما سبق أن أشرنا ، فالحديث عن مرحلة نضوج للإسلام بعد وفاة النبي ﷺ حديث لا أساس له ، لأن النضوج كان قد تم بالفعل قبل وفاته . أما إذا كان المراد بالنضوج هو تطور الفكر الإسلامي أو الفقه الإسلامي فهذا أمر آخر مع الأخذ في الاعتبار أن تطور الفقه الإسلامي لم يخرج - في أثناء بحثه عن حلول لما جدّ في المجتمع الإسلامي من مشكلات لم يكن لها نظير من قبل - عن الخطوط العامة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية .

أما أن الحديث كان انعكاساً للتطورات التي شهدها المجتمع الإسلامي في القرنين الأولين فيكذبه الحديث الشريف الذي سبق أن أوردناه :

« تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي » .

وقد كان من نتيجة ذلك جمع المسلمين على كلمة سواء في العقائد والعبادات والأخلاق وأحكام المعاملات في كل بقاع الأرض . فكيف يمكن حدوث ذلك إذا لم يكن الدين قد اكتمل ، والقواعد قد ترسخت ، والأخلاق قد تمكنت من النفوس ، والعبادات قد استقرت أوضاعها . إن القول بأن الحديث أو القسم الأكبر منه كان نتيجة للتطور الذي حدث في المجتمع الإسلامي في القرن الأول والثاني يترتب عليه ألا تتحد عبادة المسلم في شمال افريقيا مع عبادة المسلم في جنوب الصين ، نظراً للاختلاف البعيد

في البيئة في كل منها . فكيف اتحدا في العبـادة والتشريع والآداب وبينهما هذا البعد وهذا الاختلاف ؟ ! [59] .

أما اختلاف المذاهب وتعددها بعد القرن الأول فقد كان نتيجة لاختلاف أفهام المسلمين في فهم الكتاب والسنة . وهو اختلاف في الاجتهادات في الفروع لا في الأصول ، وقد أباح الإسلام مثل هذا الاختلاف في الفهم الناتج عن اجتهاد صادق . فإذا كان اجتهاداً خاطئاً فلصاحبه مع ذلك أجر واحد ، وإن كان اجتهاداً صائباً فلصاحبه أجران . ومن هنا نجد المرونة التي تتلاءم مع كل عصر وكل مكان .

وهكذا لم يصل المستشرقون إلى ما يريدون من زعزعة اعتقادات المسلمين وخلخلة تمسكهم بإيمانهم وسنة نبيهم . وقد ردد بعض من المسلمين بعض الأفكار الاستشراقية [60] ، ولكنها لم تجد أيضاً آذاناً صاغية من المسلمين .

الشريعـة الإسلاميـة .. والقانـون الرومـاني ...

الأمثلة التي ذكرناها من آراء ومواقف المستشرقين من القرآن الكريم والسنة النبوية تكفي شاهداً ودليلاً على محاولاتهم المستميتة في سبيل هدم هذين الأصلين الكبيرين اللذين يقوم عليهما الإسلام ، فالاعتقاد بهما إذا تطرق إليه التخلخل فإن ذلك سيؤدي بدوره إلى تخلخل الاعتقاد في الإسلام من أساسه . ولكن المستشرقين لم يقفوا عند هذا الحد ، فدائرة عملهم أوسع من التشكيك في القرآن والسنة ، فهم حريصون على تجريد المسلمين والعقلية الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة من كل القيم الإنسانية والحضارية

(٥٩) د . السباعي : السنة ... ص ١٩٦ .
(٦٠) مثل : محمود ابو ريّة في كتابه (اضواء على السنة المحمدية) .

والابتكارات العلمية . ولن نستطيع بطبيعة الحال أن نعرض في هذا الكتاب الموجز لكل المزاعم الاستشراقية في هذا الصدد ، ولكننا سنكتفي بأن نشير باختصار شديد إلى أنموذجين يوضحان محاولات المستشرقين في التشكيك في أصالة كل من الشريعة الإسلامية والفلسفة الإسلامية .

أما ما يتعلق بالشريعة الإسلامية فإن معظم المستشرقين يميلون إلى القول بتأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الروماني ، على اختلاف فيما بينهم في درجات هذا التأثر . فمنهم فريق من أمثال « جولد تسيهر » و « فون كريمر » و « شيلدون آموس » يذهبون إلى القول بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الروماني ، فهذا القانون هو المصدر الذي أقام فقهاء المسلمين على أساس من قواعده الكيان القانوني للشريعة الإسلامية . وفي ذلك يقول « شيلدون آموس » بصريح العبارة :

« إن الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية في الممتلكات العربية » .

ويقـول أيضـاً :

« إن القانون المحمدي ليس سوى قانون جستنيان في لباس عربي » .

ويستدل هؤلاء على دعواهم بأدلة مختلفة أهمها أن النبي ﷺ كان على معرفة واسعة بالقانون الروماني ، كما أن فقهاء المسلمين قد تعرفوا على آراء فقهاء مدارس القانون الروماني وأحكام المحاكم الرومانية في البلاد التي كانت لا تزال فيها هذه المدارس والمحاكم قائمة بعد الفتح الإسلامي . وهناك بالإضافة إلى ذلك تشابه في النظم القانونية والأحكام والقواعد الموجودة في الشريعة والقانون الروماني ، الأمر الذي يعني أن الشريعة الإسلامية اقتبست

هذه النظم والأحكام من القانون الروماني باعتباره سابقاً عليها[٦١] .

وهذه الأدلة باطلة ويسهل كشف زيفها وبطلانها ، ولا تستطيع أن تثبت أمام النقد العلمي الجاد . فالنبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن لخروجه إلى الشام في المرتين اللتين سافر فيهما أي أثر في إمكان اطلاعه على القانون الروماني . فقد كانت رحلته الأولى مع عمه أبي طالب وهو ابن تسع سنين أو اثنتي عشرة سنة ، وأما رحلته الثانية فقد كانت سنه حينذاك خمساً وعشرين سنة ، ولم يرافقه فيها إلاّ عرب خلّص ، ولم يختلط بأحد من علماء القانون الروماني ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك أي سبب يدعو الحكام الرومان أو أحد علمائهم لتعليم محمد قواعد القانون الروماني . أما تعرف علماء المسلمين على القانون الروماني من المدارس والمحاكم الرومانية فإنه زعم باطل ، لأن هذه المدارس كانت قد ألغيت بقرار امبراطوري في ١٦ ديسمبر (كانون الأول) ٥٣٣م ، وما بقي من هذه المدارس في روما والقسطنطينية لم يكن له تأثير على المسلمين . أما مدرسة بيروت فقد اندثرت قبل الفتح الإسلامي بثلاثة أرباع القرن . وما أثير حول تأثر الإمام الأوزاعي بالقانون الروماني لا أساس له ، لأن الأوزاعي كان من فقهاء مدرسة الحديث التي كانت أبعد المدارس عن التأثر بمؤثرات أجنبية . وقد قضى الفتح الإسلامي على أي سلطة أجنبية للقضاء في الدولة الإسلامية .

أما القول بالتشابه المزعوم بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني فإن التشابه لا يعني بالضرورة التأثر ، فقد يكون ناشئاً من تشابه الظروف الاجتماعية ، كما أن العقول تتشابه في كثير من أنواع التفكير . ومع ذلك فإنه

(٦١) يذكر نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون) ١/ ٧٢ مسالة تاثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني كما لو كانت حقيقة ثابتة مفروغاً منها ، فهو حين يتحدث عن تاثر المسلمين بما كان لدى نصارى دمشق من تفكير فلسفي ولاهوتي وقانوني نجده يقول : « وتاثر الفقه بالقانونين اليوناني والروماني ، وكان القديس يوحنا الدمشقي ... خير معبر لنقل تلك الافكار إلى العربية . » .

على الرغم من هذا التشابه الظاهري في بعض النظم والقواعد فإن هناك اختلافات كثيرة وأساسية بينهما مما يدل على استقلال كل منهما عن الآخر . فضلاً عن اختلافهما في مصادر الأحكام ، فالخلاف جوهري بينهما ، إذ تقوم الشريعة الإسلامية على أساس الوحي الإلهي بينما يعتمد القانون الروماني على العقل البشري ، ولذلك فإن الصلة بينهما منقطعة - كما يقول العالم الفرنسي « زيس Zeys » - فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين وصلا إلى هذه الدرجة من الاختلاف ؟[٦٢] .

وفي هذا الصدد يقول الدكتور السنهوري رحمه الله :

« إن هذا القانون بدأ عادات . . . ونما وازدهر عن طريق الدعوى والاجراءات الشكلية . أما الشريعة الإسلامية فقد بدأت كتاباً منزلاً من عند الله ، ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقي والأحكام الموضوعية . . . إلا أن فقهاء المسلمين امتازوا عن فقهاء الرومان ، بل امتازوا عن فقهاء العالم باستخلاصهم أصولاً ومبادىء عامة من نوع آخر هي أصول استنباط الأحكام من مصادرها ، وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه »[٦٣] .

الفلسفـــــة الإســــــلامية . . .

يميل نفر من المستشرقين إلى تجريد العقلية الإسلامية من كل لون من ألوان الإبداع الفكري ، وينكرون على فلاسفة الإسلام الجدة والأصالة في تفكيرهم ، ويعتبرونهم مجرد نقلة للتراث اليوناني الفلسفي . وتقوم هذه

(٦٢) انظر : المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٧٣ - ٨٩ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م .

(٦٣) اصول القانون للدكتور السنهوري ص ١٣٢ (نقلاً عن المرجع السابق ص ٨٨) .

الدعوى على أساس عنصري يقسم الشعوب إلى ساميين وآريين . فالعرب - وهم من الجنس السامي - لا قدرة لهم على التفكير الفلسفي وتناول الأمور المجردة . أما الشعوب الآرية - ومنهم اليونانيون القدماء - فهم وحدهم أصحاب المقدرة على ذلك[٦٤] .

ويصرح « رينان » في كتابه « تاريخ اللغات السامية » بأنه أول من قرر هذا الرأي الذي يذهب إلى جعل الجنس السامي دون الجنس الآري . وبناء عليه فإن ما لدى العرب من فلسفة ليس إلا اقتباساً صرفاً جديباً ، وتقليداً للفلسفة اليونانية ، وبمعنى آخر : إن الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية[٦٥] .

وذهب « كارل هينريش بيكر » إلى أنه بينما تخضع الروح الإسلامية للطبيعة الخارجية فتفنى الذوات الفردية في كل لا تمييز فيه ، فلا تتصور الأفكار إلا على الإجماع - نجد أن الروح اليونانية تمتاز بالفردية واحترام الذاتية ، وهما محل النظر الفلسفي . ولهذا فقد كان اليونان أقدر على التفلسف من المسلمين[٦٦] .

وقد تابع « جوتييه » وغيره « رينان » في دعواه العنصرية . وقال « جوتييه » :

> « هذه هي عقلية الدين الإسلامي وروحه ، في حقيقتها ودقائقها وما ظهر منها وما بطن ؟ هو دين سام بحت : مفرق وموحد بأضيق المعاني ، وغير عقلي ،

(٦٤) د . محمد ابو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ص ٩ ، ١٠ الاسكندرية ١٩٨٣م .

(٦٥) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ١٠ ، ١١ ، القاهرة ١٩٦٦م .

(٦٦) د . ابو ريان : المرجع السابق ص ١٠ .

> ولا يتفق والتفكير الحر ، وقليل الميل إلى التصوف ولو في عهده الأول على الأقل ، ومن ثم في روحه الحقة »[٦٧] .

وزعم رينان أن الإسلام دين لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها . ويذهب « تنمان » أيضاً إلى أن كتاب المسلمين المقدس يعوق النظر العقلي الحر[٦٨] .

ولا يعنينا هنا أن نناقش النظرية العنصرية التي تقسم الشعوب إلى ساميين وآريين ، فقد كادت تتلاشى لعدم استنادها على أساس علمي سليم[٦٩] ، وإن كانت قد تركت آثارها في العقلية الأوروبية ، ولكن الذي يهمنا هنا هو ما رأيناه من إقحام الإسلام في تلك المزاعم ، ووصفه بأنه دين يعوق النظر العقلي ولا يتفق والتفكير الحر ، وأنه يقف عقبة في سبيل العلم والفلسفة والبحث الحر ، فالأمر ليس تجريد العقلية العربية من الأصالة والابتكار فحسب ، وإنما هو أيضاً تفريغ الإسلام من كل قيمة إيجابية ، وجعله أداة جامدة تقف في سبيل التقدم الإنساني ، وتعويق سيره في هذه الحياة . ولست أدري كيف يستبيح المستشرقون لأنفسهم إطلاق هذه المزاعم ، والعالم كله لم يعرف ديناً من الأديان يعلي من شأن العقل مثل الإسلام ، والقرآن الكريم شاهد على ذلك ؟

فقد كرَّم الله الإنسان وفضَّله على كثير من خلقه . ولم يبلغ الإنسان كل هذا التكريم الذي سما به فوق كل الكائنات إلا بالعقل الذي اختصه الله به وميزه به على سائر خلقه . وقد نوه الإسلام بالعقل والتعويل عليه في أمور العقيدة والمسؤولية والتكليف ، ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم إلا في

(٦٧) جوتييه : المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ، ترجمة د . محمد يوسف موسى ص ١٧٦ ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

(٦٨) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٥ ، وزعماء الإصلاح لاحمد امين ص ٩٢ .

(٦٩) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٢ .

مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه[70] . وإذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو ، فإن محاولة تعطيله عن أداء هذه الوظيفة يعد تعطيلاً للحكمة التي أرادها الله من خلق العقل ، مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التي أنعم الله بها على الإنسان عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها . وهؤلاء يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان حيث يقول :

﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... ﴾ (الأعراف : ١٧٩) .

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنباً من الذنوب . يقول القرآن حكاية عن الكفار يوم القيامة :
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ... ﴾ (الملك : ١٠ ، ١١) .

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل ، وسيحاسب الإنسان على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها ، مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية . وفي ذلك يقول القرآن الكريم :
﴿ ... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الإسراء : ٦٦) .

وقد حطم الإسلام العوائق التي تقف في سبيل تأدية العقل لوظيفته ، فرفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى ، وعاب على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقاليدهم متجاهلين في ذلك حكم العقل ، كما حذَّر النبي ﷺ من مثل هذا التقليد الأعمى الذي لا يليق بكرامة الإنسان فقال : (لا تكونوا إمَّعة) [رواه الترمذي] .

(٧٠) التفكير فريضة إسلامية للأستاذ العقاد ، ص ٧ ، بيروت ١٩٦٩م .

كما قضى الإسلام على الدجل والشعوذة ، والاعتقاد في الخرافات والأوهام ، وأبطل الكهانة ، وركَّز على المسؤولية الفردية ، وجعل الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا ، وهذه المقاصد هي : حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال . وحرر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهين من السلطة الدنيوية ، ورفعه إلى مقام العزة .

وهكذا كفل الإسلام للعقل المناخ الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعي ويفهم . وبهذا تم للإنسان استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر . وقد كان لهذا الموقف الأساسي للإسلام من العقل أثره العظيم في صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية .

فقد وعى الإنسان المسلم أن الله قد خلق له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء . ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية : ١٣) .

فهل هناك دعوة إلى البحث والنظر والتفكير والتأمل أصرح من ذلك ؟

إن التفكير الذي تنص عليه هذه الآية أمر جوهري مقصود . فإذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون بما فيه فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة ، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً ، وإيجابيته تتمثل في درسه والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير . والاستفادة من كل هذه المسخرات في هذا الكون لا تكون إلاَّ بالعلم والدراسة والفهم . والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو

سيؤدي إلى الرقي المادي ، وفي الوقت نفسه إلى الرقي الروحي . . يقول القرآن الكريم :

﴿ . . . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . . ﴾ (فصلت : ٥٣) .

وبعد هذا التوضيح نقول لمن يمارون في ذلك كله ويشككون فيه ، ما قالـــه القرآن الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد : ٢٤) .

ملاحظـــــات على آراء المســـــتشرقين . . .

من خلال هذا العرض السابق لبعض الأمثلة من آراء المستشرقين « العلميـــــة » عن الإسلام ونبيه ﷺ وتعاليمه ، ومن واقع ما لهم من آراء أخرى تسير في الاتجاه نفسه ، نستطيع أن نستخلص الأمــــور التالية :

(١) الاســـــتشراق ـ من بين شتى العلوم الأخرى ـ لم يطور كثيراً في أساليبه ومناهجه . وفي دراسته للإسلام لم يستطع أن يحرر نفسه تماماً من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتي العقيم الذي انبثق منه الاستشراق أساساً . ولم يتغير شيء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ . « ومن الواضح في هذا الصدد أن صورة العصور الوسطى للإسلام قد ظلت في جوهرها دون تغيير ، وإنما نضت عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع ثياباً أقرب إلى العصر . وتتعدد علائم الإصرار على الأفكار العتيقة سواء فيها يتعلق بالقرآن أو ما يتعلق منطقياً بالعقيدة والشريعة والتاريخ في الإسلام »[٧١] .

---

(٧١) طيباوي (راجع الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي ص ٥٩٨) .

وتخدم اليوم وسائل الإعلام المتعددة في الغرب في تأكيد وتقوية هذا الوضع التقليدي الذي لا يزال ينظر إلى الإسلام إلى حد كبير بمنظار القرون الوسطى ، ولعل هذا ما دعا السكرتـير العام للمجلس الإسلامي الأوروبي في شهر يناير (كانون الأول) ١٩٧٩م إلى التنديد بوسائل الإعلام الغربية لموقفها من الإسلام ، ووصفه لهذا الموقف بالإجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها . وهذا كله يحدث على الرغم من أن مجلس الفاتيكان قد أشاد في شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٥ بالحقائق التي جاء بها الإسلام والتي تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين ، وعلى الرغم أيضاً من قول المستشرق الألماني « بـــارت » من أن الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى إلى نوايا جانبية غير صافية[٧٢] .

والغريب أن الهيئات العالمية مثل اليونسكو ـ وهي هيئة دولية تشترك فيها الدول الإسلامية ـ تستكتب المستشرقين ، بوصفهم متخصصين في الإسلاميات ، للكتابة عن الإسلام والمسلمين في الموسوعة الشاملة التي تصدرها اليونسكو عن « تاريخ الجنس البشري وتطوره الثقافي والعلمي » .

« وقد أثارت كتاباتهم حفيظة المسلمين على مؤسسة اليونسكو . والمهم ما فيها من مجافاة للحقائق التاريخية وتهجم على نبي الإسلام ، وكتب الكثيرون احتجاجات على هذه الإساءات التي ليست إلا وحياً لتقاليد موروثة ، وامتداداً للروح الصليبي ، وهو عمل كان ينبغي أن تتنزه عنه هذه المؤسسة الكبيرة[٧٣] .

---

(٧٢) انظر : كتابنا الإسلام في الفكر الغربي ص ٩ . تراث الإسلام ١/ ٩٥ ، بـــارت ١٠

(٧٣) الإسلام والمستشرقون للدكتور عبد الجليل شلبي ص ٣/ ٤ ـ القاهرة ١٩٧٧ .

(٢) يخلط الاستشراق كثيراً بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردي للعالم الإسلامي في عالم اليوم . فإسلام الكتاب والسنة يعد في نظر مستشرق معاصر مثل « كيسلنج » إسلاماً ميتاً . أما الإسلام الحي الذي يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش في مختلف الأقطار الإسلامية[٧٤] ، هو تلك الممارسات السائدة في حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول .

(٣) يؤكد الاستشراق بوضوح ظاهر على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والقاديانية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة ، ويعمل على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة . والمستشرقون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي ، ودائمًا يهتمون بكل غريب وشاذ ، ودائمًا يقيسون ما يرونه في العالم الإسلامي على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة . وقد أشار المستشرق « رودنسون » إلى شيء من ذلك حين قال :

« ولم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته ، فاهتموا كثيراً بالأشياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوروبا ، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه »[٧٥] .

(٧٤) كان يردد هذا الكلام في محاضراته في جامعة ميونيخ . وقد احيل إلى التقاعد منذ بضع سنوات .

(٧٥) من محاضرة القاها في القاهرة بعنوان : (رؤية اوروبا للعالم الإسلامي) ونشرتها صحيفة الأهرام في ٢٩/١٢/١٩٦٩م . وله عبارة مشابهة في بحثه المنشور في كتاب (تراث الإسلام) ١/ ٨٠ حيث يقول : « وحين كان الغربيون يذهبون إلى الشرق ، كانت تلك (اي الصورة المشوهة للشرق) هي الصورة التي يبحثون عنها ، فينتقون ما يرونه بعناية ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التي كونوها سابقاً » .

(٤) يفتقد المرء الموضوعية في كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسلامي ، في حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرهما يكونون موضوعيين في عرضهم لهذه الأديان . فالإسلام فقط من بين كل الديانات التي ظهرت في الشرق والغرب هو الذي يُهاجَم . والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعاً هم الذين يوصمون بشتى الأوصاف الدنيئة . ويتساءل المرء : لماذا ؟

ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوروبا صدمة مستمرة . فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة . وحتى نهاية القرن السابع عشر كان « الخطر العثماني » رابضاً عند حدود أوروبا ويمثل - في اعتقادهم - تهديداً مستمراً بالنسبة للمدنية النصرانية كلها .

ومن هنا يمكن فهم ما يزعمه (موير Muir) من :

« إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً ضد الحضارة والحرية والحقيقة » .

وما يدَّعيه « فون جرونيباوم » من أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها في أي دين آخر أو حضارة أخرى . فهو دين غير إنساني وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية . وهو دين غير خلاق وغير علمي واستبدادي[٧٦] .

وهكذا ينضح الحقد الدفين على الإسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات التي ليس لها في سوق العلم نصيب .

(٥) يعطي الاستشراق لنفسه في دراسته للإسلام دور ممثل الاتهام والقاضي في الوقت نفسه . فبينما نجد مثلاً أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ،

(٧٦) راجع : إدوارد سعيد ص ٨٩ ، ١٦٨ ، ٢٩٦ .

ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذي يدرسه ، نجد الاستشراق يعطي لنفسه حق الحكم بل وحتى الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي[٧٧] . وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون نوايا علمية صافية كما يدعي المستشرق « رودي بـارت » .

(٦) يعد الاستشراق أسلوباً خاصاً في التفكير ينبني على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب . (فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) كما قال الشاعر الاستعماري المشهور « كبلنج Kipling » . فالغربيون عقليون ومحبون للسلام ومتحررون ومنطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شيء[٧٨] .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة ، وهي أن الحضارة الغربية ـ التي يصفونها باعتزاز بأنها حضارة نصرانية ـ مبنية في الأصل على تعاليم رجل شرقي وهو المسيح عليه السلام ، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدي العرب . وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية إلى شرق وغرب والتي يعتمد عليها الاستشراق أمراً مخالفاً للمنطق . فالنصرانية دين شرقي ، والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالنصرانية ، والشرق متخلف لأنه يدين بالإسلام زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع ، فالتقدم الذي يشهده الغرب اليوم في مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالنصرانية كدين ، والتخلف الذي يعاني منه الشرق لا يتحمل الإسلام وزره . فهذا التخلف يعد ـ كما يقول « مالك بن نبي » رحمه الله :

(٧٧) جعيـط ص ٧٤ .
(٧٨) راجع : تراث الإسلام ١/ ٩٣ ، إدوارد سعيد ٧٩ .

« عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون »[٧٩] .

(٧) يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس النصرانية على الدين الإسلامي وعلى نبيه ﷺ . فالمسيح ـ في نظر النصارىٰ ـ هو أساس العقيدة ، ولهذا تنسب النصرانية إليه . وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام واعتبروا أن محمداً ﷺ يعني بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للنصرانية ، ولهذا أطلقوا على الإسلام اسم « المذهب المحمدي Mohammedanism » وأطلقوا على المسلمين وصف « المحمديين » .

ولكن هناك سبباً آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة النصرانية إلى المسيح فلا تعطي هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله .

وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح ، يكون المسيح فيها هو المقياس . فمحمد مزواج وشهواني في مقابل المسيح العفيف الذي لم يتزوج ، ومحمد محارب وسياسي أما يسوع فهو مسالم مغلوب على أمره ومعذب يدعو إلى محبة الأعداء وهكذا[٨٠] .

(٨) إن الإسلام الذي يعرضه هؤلاء المستشرقون ـ المتحاملون على الإسلام ـ في كتبهم هو إسلام من اختراعهم ، وهو بالطبع ليس الإسلام الذي ندين به ، كما أن محمداً الذي يصورونه في مؤلفاتهم ليس هو محمد الذي نؤمن برسالته ، وإنما هو شخص آخر من نسج خيالهم[٨١] .

(٧٩) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص ٧٦ ، القاهرة ١٩٧١م .
(٨٠) جعيـط ٦٣ .
(٨١) د . حسين مؤنس (راجع الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي ص ٥٧٠) .

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق - في دراسته للإسلام - ليس علمًا بأي مقياس علمي ، وإنما هو عبارة عن أيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام ، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات .

وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديماً .

فإذا وصفنا المستشرقين المتحاملين على الإسلام بأنهم السوفسطائيون الجدد فنحن بذلك لم نتجن عليهم على الإطلاق ، ولم نتجاوز التعبير عن الواقع الذي يعيشونه مع الإسلام المفترى عليه .

وأخيراً . . .

فإن قضية التفاهم بين الأمة الإسلامية والشعوب الغربية وإقامة علاقات ودية بينهما لخدمة مصالح كل من الجانبين ، أصبحت من القضايا الملحة في عصرنا الراهن الذي تشابكت فيه المصالح وتعددت أوجه اعتماد كل جانب على الآخر . . هذه القضية - التي هي قضية السلام والاستقرار - لا تخدم عن طريق التهجم على مقدسات الشعوب الإسلامية أو الطعن في دينها وعقائدها أو الانتقاص من قيمها . وقد آن الأوان لوضع حد لهذه الحملات العدائية ضد الإسلام والمسلمين ، سواء من جانب المستشرقين أو في وسائل الإعلام الغربية .

ومن ناحية أخرى فإن الديانات السماوية بصفة خاصة قد أصبحت اليوم مهددة من جانب التيارات المادية الإلحادية التي تجتاح العالم اليوم . والتهديد ليس موجهاً ضد الإسلام فقط وإنما هو موجه بالقدر نفسه ضد النصرانية واليهودية ، وهذا أمر يتطلب توحيد جهود الأديان السماوية كلها للوقوف صفاً واحداً ضد الإلحاد الذي يكاد يعصف بكل القوى الروحية في العالم .

ولن يتحقق مثل هذا التعاون طالما ظلّت فئة من المستشرقين سادرة في غيها ، ومستمرة في عدوانها على الإسلام ومقدساته ، وعلى المسلمين وقيمهم الدينية .

وإذا كانت المسألة مسألة سـوء فهم ترسخ على مدى قرون طويلة فعلى المستشرقين أنفسهم أن ينهضوا اليوم للقضاء عليه ، لأن سوء الفهم ليس من جانبنا نحن المسلمين ، وإنما هو أساساً من جانب الغربيين أنفسهم . فنحن نحترم المسيح عليه السلام ، ونؤمن بنبوته وسمو رسالته وطهارة مريم ، كما نؤمن بموسى عليه السلام ونبوته . ونؤمن بأن محمداً ﷺ كان آخر حلقة في سلسلة النبوات الربانية .

ويعترف بعض الكتاب الغربيين المعتدلين بتحمل الغربيين للجانب الأكبر من سوء الفهم . وفي ذلك يقول « إميل ديرمانجيم » :

« . . . حين اشتعلت الحرب بين الإسلام والنصرانية ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين ، وأساء كل منهما فهم الآخر ، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين . ففي الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التي أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الإسلام بمساوىء واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم في دراستهم - هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم إيَّاهم إلا تهماً باطلة بل متناقضة »[٨٢] .

(٨٢) نقلاً عن د . غلاب : نظرات استشراقية ص ٩ .

الفصل الثالث

موقفنا من الاستشراق

تمهيد . . .

بعد أن اتضحت لنا بعض الشيء - في الفصلين السابقين - أبعاد المواقف الاستشراقية بإيجابياتها وسلبياتها يبقى أمامنا السؤال الكبير :

ماذا فعلنا نحن ؟

ما موقفنا من الحركة الاستشراقية ؟

إنها حركة فكرية هائلة ، وما تنتجه يخصنا ويخص عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيتنا . هل نكتفي بموقف المتفرج في المسرح تعجبه بعض المشاهد فتتهلل أساريره ، ولا تعجبه بعض المشاهد الأخرى فيقطب جبينه ويمط شفتيه ؟

إن الأمر هنا يختلف تماماً ، فالأمر ليس مجرد استحسان أو استهجان عابرين : نفرح حين يمن علينا بعضهم بكلمات المدح ، ونفزع غاضبين حين يصب علينا بعضهم الآخر صواعق فكرية ، فنستعيذ بالله من شياطين الإنس ونعتبر الموضوع منتهياً ثم نستأنف سيرنا العادي الرتيب .

لا ، إن الأمر أخطر من ذلك بكثير ، لأنه يتعلق بأعمق أعماقنا عقدياً وفكرياً وحضارياً . وليس هناك أمامنا من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات ، وإلا فلسنا جديرين بالحياة . .

لقد أضعنا الكثير من عمر الزمن في تفاهات الأمور ، وغيرنا يصارعنا في عظائم الأمور ، ونحن لاهون ، غافلون ، غير مكترثين . . يزلزل الآخرون في جذورنا ونحن لا نشعر ولا نعي ، وإن شعرنا فهو شعور الكسول المتباطىء الذي يجد المتعة في التمطي والتثاؤب أكثر مما يجدها في الحركة والعمل .

إن المستشرقين يعملون ونحن لا نعمل . وهذا هو الفارق بيننا وبينهم بصرف النظر عن طبيعة العمل الذي يقومون به . وقد آن الأوان لنعمل نحن أيضاً . . . لنعمل حتى الموت لأن المسألة مسألة مصير .

وفي الصفحات التالية نستعرض معاً موقفنا وما يتطلبه العمل الإسلامي منا في هذا المجال ، ونضع أمام المسلمين الغيورين بعض المقترحات التي نعتقد أنها يمكن أن تعوض بعض ما فات من وقت ضائع وكرامة مهانة وذاتية منهارة .

الصـــراع الفكري ومتطلباتـــه . . .

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التي كانت تمثل تحدياً للإسلام والفكر الإسلامي الأصيل في عصور الإسلام الزاهرة ـ كانت حافزاً للمسلمين في تلك الأيام الخوالي للوقوف أمامها بقوة وصلابة . وقد كانت المواجهة على مستوى التحدي بل تفوقه . فقد هضم الفكر الإسلامي تلك التيارات هضماً دقيقاً واستوعبها استيعاباً تاماً ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها . فالمواجهة إذن كانت مواجهة فكرية .

وكأن التاريخ الآن يُعاد نفسه ، فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار ، والمعركة معركة فكرية ، ولهذه المعركة أدواتها التي يجب التسلح بها ، فالخسران في هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أية معركة حربية أياً كان حجمها .

لننظر مثلاً أنموذجاً رائداً في تاريخ الفكر الإسلامي . . إنه حجة الإسلام « الغزالي » الذي خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعاً منتصراً ، فماذا كان يفعل ؟ يقول « الإمام الغزالي » في كتابه (المنقذ من الضلال) :

« . . . إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم من أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم . .

وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً[1] » .

وقياساً على ما يقوله الإمام الغزالي نجد أن استيعاب الإنتاج الاستشراقي حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف ، الأمر الذي يجعل المستشرقين المنحرفين عن جادة الصواب يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسباً لما قد يواجههم من نقد علمي يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم .

ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي « مكسيم رودنسون » حين يشير إلى أن النقد الأوروبي ربما يكون غير عادل في نقاط معينة ، ولكن القيام بتفنيد هذا النقد يقتضي بدوره دراسته أولاً ، إذ لا يمكن نقضه إلا على الأساس نفسه الذي قام عليه[2] .

(١) المنقذ من الضلال ـ تحقيق د . عبد الحليم محمود ص ١٠٣ ـ القاهرة (بدون تاريخ) .

(2) M. Rodinson: Mohammed. Frankfurt/M. 1975, p.8.

ويجب أن يرتبط نقدنا لإنتاج المستشرقين بنقد ذاتي حقيقي بصفة مستمرة ، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا ، وأن نكون على وعي حقيقي بالمشكلات التي تواجهنا في هذا العالم المعاصر .

وقد يتمثل الجانب الإيجابي للاستشراق في صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس في صورة المدح ، وإن كان هذا يبدو أمراً غريباً ، وهو غريب حقاً . ولكن إذا عرف السبب بطل العجب . فكلنا يعلم أن هناك عدداً لا بأس به من المستشرقين المنصفين قد مدحوا حضارتنا في مؤلفاتهم وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا . وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة « زيجريد هونكه » في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) ونحن نقدر لهؤلاء العلماء هذه الجهود العلمية العادلة ، ونشكر لهم باسم العلم إخلاصهم للحقيقة ووقوفهم في صف النزاهة العلمية والتزامهم بالموضوعية والبعد عن الأهواء والأغراض .

ولكن هناك ملاحظة في هذا المقام تخصنا نحن المسلمين . وتتلخص هذه الملاحظة في أن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديري علينا[3] . فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التي تذكرنا بالعز الذي كان ، ونركن إلى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا ، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا عظماء ، ورحم الله جمال الدين الأفغاني . . . فقد زاره شكيب أرسلان ذات مرة وحكى له ما يروى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطي قديماً واكتشفوا أمريكا قبل الأوروبيين . فرد عليه جمال الدين الأفغاني قائلاً :

« إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بني آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا

(٣) انظر انتاج المستشرقين لمالك بن نبي – ص ٢٣ القاهرة ١٩٧٠م .

الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً . ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم[4] » .

ومن هنا نقول : إن الجانب الهجومي التفنيدي الاستفزازي في إنتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيراً من جانب المدح تأكيداً للمثل المعروف (رب ضـــارة نافعة) . فقد يكون هذا الاستفزاز حافزاً لنا على الخروج من حالة الركود الفكري التي وصلنا إليها فننهض بعد طول رقاد وننطلق من جديد نبني أفكارنا ونعيد ترتيب ثقافتنا ، وبذلك نقبل التحدي ونستجيب له بانطلاقة إسلامية حضارية جديدة . ولعل هذا ينطبق عليه تفسير « توينبي » للحضارة بأنها استجابة للتحدي بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحدياً معيناً .

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات في رد الهجوم وترقب الطعنات للرد عليها ، وإنما هو الرد الفعال الذي ينتقل إلى الموقف الأقوى . فلا يجوز أن نقف دائماً موقف المعتدىٰ عليه ، فالمعتدىٰ عليه غالباً ما يكون ضعيفاً . ولهذا لا بد من أن نغير وضعنا وذلك لن يكون إلا بتغيير أفكارنا ، فنحن لسنا متخلفين لقلة ما لدينا من إمكانات مادية ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبدد جهودنا . ولن تتغير أحوالنا إلا بتغير ما في نفوسنا طبقاً للمبدأ القرآني القائل :

﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ (الرعد : ١١) .

ولا بد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته . فالاستشراق في حد

(٤) زعماء الإصلاح للأستاذ احمد امين ص ١١٠ – القاهرة ١٩٧١ .

ذاته كان دليل وصاية فكرية[٥] . ويوم أن يعي العالم الإسلامي ذاته وينهض من عجزه ويلقي من على كاهله أثقال التخلف الفكري والحضاري - يومها سيجد الاستشراق نفسه في أزمة ، وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام ، ويومها لن يجد الجمهور الذي يخاطبه لا في أوروبا ولا في العالم الإسلامي .

ولا يجوز لنا أن ننتظر من غيرنا - أيا كان هذا - أن يساعدنا على النهوض من كبوتنا ، فقد تعلمنا من تراث الأجداد أنه :

« ما حكَّ جلدك مثل ظفرك - فتول أنت جميع أمرك » .

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية ، فإن علينا من ناحية أخرى أن نتحرر من عقدة التخلف التي تسيطر علينا في جميع مناحي حياتنا ، والتي تسد علينا منافذ الأمل في الخروج من أزمتنا . فقد تحررنا من الاستعمار العسكري ، ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار - كما يقول مالك بن نبي رحمه الله - . ولهذا فإن نظرتنا لكل ما يأتي من الغرب هي نظرة التقدير والإكبار حتى وإن كان هذا الذي يرد إلينا متمثلاً في أزياء غريبة عن أذواقنا وتقاليدنا ، أو شرائط تحمل ألحاناً صاخبة وأصواتاً مزعجة تصرخ بعنف يحطم الأعصاب ، ونعدها فناً نتلقفه ونحاكيه لأنه قادم من الغرب المتقدم ، غافلين عن الأسباب التي أفرزت في الغرب مثل هذه الظواهر ، وهي أسباب غريبة عنَّا بكل تأكيد .

ويبدو أن « عقدة الخواجة » والتقدير الفائق لقدرات الأجنبي أمر ضارب بأطنابه في تاريخنا ، فقد حكى الجاحظ في كتاب البخلاء[٦] الحكاية التالية عن طبيب عربي مسلم هو (أسد بن جاني) . . يقول الجاحظ :

« وكان طبيباً فأكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبيئة ، والأمراض فاشية ،

(٥) هشام جعيط : اوروبا والإسلام ص ٦٨ . ترجمة د . طلال عتريسي - دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠م .

(٦) ص : ١٠٩ ، ١١٠ طبعة ليدن (نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرازق : خمسة من اعلام الفكر الإسلامي ص ٢٠ - دار الكاتب العربي - بدون تاريخ) •

وأنت عالم ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تؤتى في هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة ، فإني عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون في الطب ، واسمي أسد ، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليباً ، ومراسل ، ويوحنا ، وبيرا ، وكنيتي أبو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون : أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو إبراهيم ، وَعَلَيَّ رداء قطن أبيض وكان ينبغي أن يكون عَلَيَّ رداء حرير أسود ، ولفظي عربي وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جند يسابور » .

وقد سمعت حكاية غريبة منذ بضع سنوات مؤداها أن إحدى الدول العربية كانت قد تعاقدت مع أحد الأساتذة الأمريكيين للتدريس في جامعاتها . وقد كان لدى هذا البلد العربي حينذاك جدول غريب للمرتبات لأعضاء هيئة التدريس في الجامعة ، في قمته الأوروبيون والأمريكيون وفي أوسطه الأسيويون من الهند وباكستان وفي أسفله العرب . وعندما حضر الأستاذ الأمريكي تبين أنه يتحدث العربية بطلاقة وأنه أصلاً عربي تجنس بالجنسية الأمريكية ، وعندئذ أصر هذا البلد العربي على وضع هذا الأستاذ - لأنه أصلاً عربي - في أسفل جدول المرتبات مع الأساتذة العرب . . ولكن الأستاذ رفض ذلك ولجأ إلى السفارة الأمريكية لتحميه من الظلم العربي ، واستطاعت السفارة أن ترغم هذا البلد العربي على دفع التعويض الذي ينص عليه العقد لهذا الأستاذ الذي عاد إلى بلاده الجديدة التي تقدر كفاءته .

كيف نستطيع أن ننتصر في قضية الصراع الحضاري بمثل هذه العقليات المتخلفة ؟

لا بد من تغيير جذري في أسلوب حياتنا ، ولا بد من إعادة النظر في ثقافتنا وفي تفكيرنا .

إن قضية التقدم ـ المادي والروحي ـ قضية لا خلاف عليها ، واللحاق بركب التطور العلمي والتقني أمر لا جدال فيه . ولكن السؤال الجوهري هو :

هل نحن حريصون حقاً على الحفاظ على هويتنا وعقائدنا وتراثنا واستقلالية شخصيتنا الإسلامية أم لا ؟

إذا كانت الإجابة بالإيجاب فنحن إذن أصحاب قضية يجب أن نعمل من أجلها بكل إمكاناتنا وطاقاتنا . . . وهي قضية مصيرية من أجل إثبات الذات . . قضية صراع حضاري مرير .

والاستشراق طرف في هذه القضية ، لأن كثيراً من الدراسات الاستشراقية في مجال الإسلاميات تهدف بطريق مباشر أو غير مباشر إلى طمس معالم هويتنا ، والتشكيك في عقائدنا وتراثنا ، والنيل من استقلالية شخصيتنا العربية الإسلامية . والتصدي لذلك من جانبنا له أساليب مختلفة ترتكز كلها على شرط جوهري لا بد من توفره قبل أن نخطو خطوة واحدة في هذا السبيل ، ويتمثل هذا الشرط في الثقة بالنفس والإيمان بالهدف .

وسنحاول فيما يلي عرض بعض الأساليب التي يمكن أن تساعدنا على الوصول إلى أهدافنا المرجوة .

[١] موسوعة الرد على المستشرقين . . .

إن المواجهة الفكرية الجادة ـ كما سبق أن أشرنا ـ هي الطريق الصحيح لمجابهة أية تيارات مناوئة للإسلام والمسلمين ، ومن أجل ذلك ينبغي علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية ، ونأخذ في الحسبان أن لها آثاراً كبيرة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الإسلامي وفي العالم الغربي على السواء . ولهذا لا بد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة . ولا يكفي أن نقول : إن ما يكتبونه كلام فارغ . فهذا الكلام الفارغ مكتوب

بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشاراً واسعاً على مستوى عالمي . ومواجهته لا بد أن تكون على المستوى العالمي نفسه ، وبالكلام « المليان » على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس(٧) .

وفي هذا الصدد يجدر بنا أن نشير هنا إلى أحد المشاريع المتعلقة بهذا الموضوع وما أكثر مشروعاتنا . وما أكثر ما لدينا من نوايا طيبة . ولكن الذي ينقصنا هو ترجمة المشروعات إلى واقع ملموس وتحويل النوايا الطيبة إلى إرادة للعمل المثمر الذي يثبت أركان الشخصية الإسلامية ، ويحفظ ما لها من مقدسات ويرد عنها كيد الأعداء ويسير بها نحو البناء الحضاري السليم .

لقد دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في القاهرة في نهاية عام ١٩٧٩م إلى ندوة لمناقشة موضوع إعداد « موسوعة للرد على المستشرقين » . وقد حضر الندوة عدد يزيد على العشرين من العلماء والمفكرين المهتمين بهذا الموضوع . وقد تشرفت بأن كنت مقرراً لهذه الندوة التي عقدت جلساتها على مدى ثلاثة أيام .

وفي ختام الندوة قمت بإعداد تقرير ختامي عن المنهج العلمي الواجب اتباعه في إعداد هذه الموسوعة . وذلك على ضوء المناقشات التي دارت في الندوة . وتم تسليم التقرير في حينه إلى المسؤولين عن الندوة المذكورة . وقضي الأمر ونامت الفكرة . ولعل ذلك يرجع إلى الظروف السياسية التي سادت المنطقة العربية في السنوات الأخيرة .

وفيما يلي أورد هنا نص هذا التقرير ننشره تذكرة وعبرة . فقد يوفق الله من يشاء من عباده ـ ممن تتوفر لديهم الحماسة الكافية والقدرة على التنفيذ ـ إلى العمل على تحريك مثل هذا المشروع وغيره من مشروعات علمية نافعة لترى النور حتى تستطيع هي بدورها أن تنير للمدلجين وتهدي الحائرين . وإليك التقرير المذكور :

(٧) من مقال له الحقه الدكتور محمد البهي بكتابه : الفكر الإسلامي الحديث انظر ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ .

تقرير حول المنهج العلمي الواجب اتباعه في إعداد موسوعة الرد على المستشرقين :

(أ) أسـلوب التنـاول :

١ - إن التطورات الفكرية في عالم اليوم والتقدم العلمي العظيم الذي حققه الإنسان في العصر الحاضر في مختلف المجالات يقتضي أن نكون في معالجتنا للقضايا التي أثارها الفكر الاستشراقي على وعي تام بمقتضيات العصر وإدراك كامل للمستويات الثقافية السائدة .

ومن أجل ذلك ، ونظراً لأن هذه الموسوعة تخاطب جمهرة المثقفين الذين أتيح لهم الاطلاع على شبهات المستشرقين - ينبغي أن يكون تناولنا للموضوعات التي تشتمل عليها الموسوعة الإسلامية المقترحة تناولاً موضوعياً مدعمًا بالحقائق العلمية والشواهد التاريخية والبراهين العقلية ، وكذلك بالأسانيد الدينية فيما يتعلق بالعلوم النقلية التي يعترف المستشرقون بالمناهج التي استخدمت فيها .

٢ - يتطلب الرد على الشبهات والطعون التي أثارها المستشرقون عرض هذه الشبهات والرد عليها تفصيلياً بعيداً عن النزعات الهجومية حتى يكون لهذا العمل العلمي أثره الإيجابي لدى المثقفين من كل الطبقات من المسلمين وغير المسلمين . وحتى يكون دافعاً للمستشرقين إلى إعادة النظر في أقوالهم وعوناً لهم على تصحيح اتجاهاتهم حول الإسلام وتاريخه وحضارته . وفي النهاية يكون هذا العمل العلمي بمثابة تعريف بالإسلام لكل راغب في التعرف عليه .

٣ - ينبغي أن تقتصر هذه الموسوعة على الموضوعات التي كانت مثار أخذ ورد وجدل لدى المستشرقين ، وبصفة أساسية في القرنين التاسع عشر والعشرين .

ومن أجل ذلك فليس هناك ما يدعو للحديث عن موضوعات لم يتطرق المستشرقون للخوض فيها بالرفض أو بالقبول إذ ليس الهدف

هنا هو التاريخ الكامل للحضارة الإسلامية .

٤ - من المعروف أن المستشرقين لا يشكلون اتجاهاً واحداً في كل المسائل الإسلامية التي تعرضوا لها . . فهناك مسائل يختلفون فيها ما بين مؤيد ومعارض ، ولذلك ينبغي إبراز ردود بعض المستشرقين على بعضهم الآخر بصدد بعض الشبهات التي أثاروها حول الإسلام والحضارة الإسلامية .

٥ - ينبغي أن تصدر الموسوعة بدراسة عن الاستشراق بوجه عام على أن تبين هذه الدراسة أهداف الاستشراق ومناهجه والأسباب التي دعت إلى الدراسات الاستشراقية وأدت إلى إثارة الطعون والشبهات حول الإسلام وتاريخه وحضارته .

(ب) فـروع العلـوم الإسـلامية والفكر الإسـلامي :

لقد طرق المستشرقون في دراستهم كل فروع العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة وركزوا على بعض القضايا الهامة التي تتصل بأصالة الدين الإسلامي وأصالة الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ويمكن تقسيم المجالات العلمية التي ستكون محوراً للتناول في هذه الموسوعة إلى مجالين رئيسين يندرج تحتهما فروع مختلفة على النحو التالي :

أولاً : علوم دينية وتشمل دراسات المستشرقين حول الدين الإسلامي بصفة عامة ، وحول القرآن الكريم بصفة خاصة مع العناية بدراسة الترجمات المختلفة التي قاموا بها للقرآن الكريم ، وتقويم هذه الترجمات . وتشمل كذلك الدراسات المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه الإسلامي ، وعلم الكلام والتصوف وأصول الفقه . مع الاهتمام بتقويم مناهج المستشرقين في هذه الدراسات ووضعها في ميزان النقد العلمي وبيان ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لهذه الدراسات .

ثانيـاً : علوم إنسانية وتشمل علوم الفلسفة واللغة وعلومها والأدب

وتاريخه والنقد الأدبي والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والجغرافيا والعمارة والفنون الإسلامية ، كما تشمل أيضاً الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلوم الكيمياء والفنون والطب والصيدلة والنبات والحيوان . مع الاهتمام بإبراز مدى أصالة المسلمين وإبداعهم في كل هذه المجالات ومدى ما أسهموا به وقدموه للحضارة الإنسانية .

(ج) خطـــوات تحضـــير المـــادة ومراحلها :

١ - يجب في البداية القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين عن المجالات سالفة الذكر في القرنين التاسع عشر والعشرين بصفة أساسية باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والاسبانية والإيطالية والروسية ، ويشمل هذا الحصر الكتب والمجلات والدوريات . . . إلخ .

والقيام بعملية حصر هذه الأعمال الاستشراقية يحتاج على الأقل إلى خبير ، وعدد من المساعدين في مجال كل لغة من هذه اللغات الست . على أن يستعان في هذا الحصر أيضاً بالمتخصصين في المجال الاستشراقي ممن اعتنقوا الإسلام في أوروبا وغيرها .

٢ - لا بد من توفير كل الأعمال الاستشراقية المشار إليها عن طريق الشراء إذا كانت متوفرة أو عن طريق التصوير إذا لم يمكن شراؤها . وتشكل هذه الأعمال مكتبة استشراقية تكون تحت أيدي الخبراء والعلماء الذين يشتركون في إعداد الموسوعة .

٣ - يقوم جهاز متعاون من الخبراء في اللغات الست المشار إليها بتحضير المادة وتصنيف الموضوعات وضم المادة التي يتكرر الحديث عنها في لغات مختلفة تحت موضوع واحد حتى يتم الرد عليها جملة واحدة .

٤ - تقدم المادة للعلماء الذين سيقومون بإعداد الردود العلمية . ويراعى عند تقديم هذه المادة لهم أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المطلوب الكتابة فيها من اللغات التي لا يجيدون القراءة بها حتى يكون

لديهم تصور شامل لكل ما قيل حول القضية المطروحة وحتى يغطي التناول للموضوع وجهات النظر التي قيلت فيه .

(د) الإعـــــداد والتحـــــرير :

١ - يحتاج هذا العمل الموسوعي الضخم إلى عدد كبير من العلماء المسلمين في التخصصات المختلفة يطلب منهم الكتابة في موضوعات محددة حسب المادة التي تقدم إليهم ، كل في مجال تخصصه ، على أن يكون الرد فيها وافياً بعيداً عن التطويل الممل أو الإيجاز المخل ، وطبيعة الموضوعات هي التي ستحدد حجم الردود المطلوبة ، وتوضع خطة زمنية أقصاها ستة أشهر لوصول الرد .

٢ - يتم تحرير الموضوعات باللغة العربية وفي الحالات التي لا يجيد فيها أحد العلماء المسلمين اللغة العربية يمكن الكتابة بإحدى اللغات الأجنبية على أن يتم ترجمة الموضوع إلى اللغة العربية فور وصوله .

(هـ) المراجعـــــة والتدقيق :

عند وصول رد من الردود يحال إلى لجنة مختصة بالمراجعة والتدقيق تنحصر مهمتها في فحص الرد من جميع جوانبه الدينية والعلمية والتاريخية . . . إلخ . ومدى وفائه بالغرض المطلوب وهو استيعابه التام للرد على الشبهة المراد الرد عليها وتفنيد حججها بالأدلة الدامغة .

(و) التـــوزيع المحـــدود :

عندما تعتمد لجنة المراجعة رداً من الردود يتم تصويره ، ويوزع توزيعاً محدوداً على مجموعة من العلماء المتخصصين على مستوى الوطن الإسلامي لإقراره واعتماده اعتماداً نهائياً أو بيان ما قد يكون هناك عليه من ملاحظات لمراعاتها وأخذها بعين الاعتبار .

(ز) الطباعـــة والنشـــر والترجمـــة :

بعد مرحلة التوزيع المحدود واعتماد الرد اعتماداً نهائياً يتم إعداده للطباعة في إطار مجال من مجالات فروع العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي

السابق الإشارة إليها ، وفي الوقت نفسه تبدأ مجموعة من الخبراء في ترجمته إلى اللغات الأجنبية الست التي سبقت الإشارة إليها . ويمكن أن يتم النشر في وقت واحد باللغة العربية وهذه اللغات الأجنبية .

ولعل في ذلك فائدة أكثر ونفعاً أعم .

وبذلك تنشر الموسوعة على مراحل حسب العمل الذي يتم إنجازه ، مع مراعاة ضم قضايا المجال الواحد معاً لتشكل وحدة متكاملة يمكن أن تأخذ صورة كتاب في موضوع معين . وعندما يتم الانتهاء من الموسوعة يمكن إعادة طبعها مرة أخرى في صورة مكتملة .

ولتمام الفائدة وسرعة العثور على الموضوع المطلوب في الموسوعة لا بد من القيام بعمل كشاف في نهاية الموسوعة يضم فهرساً موضوعياً وفهرساً للأعلام .

الهيئـــــة العلميـــــة للمشــــــروع . . .

١ ـ يتطلب هذا المشروع الكبير ـ الذي يقدم للجيل المعاصر والأجيال القادمة أهم خدمة علمية إسلامية في بداية القرن الخامس عشر الهجري ـ عدداً لا يقل عن مائة من العلماء المتخصصين في شتى مجالات الفكر الإسلامي على مستوى العالم الإسلامي من أصحاب الكفايات العلمية الممتازة يقومون بمهمة الإعداد والتحرير لموضوعات الموسوعة .

٢ ـ تقوم لجنة علمية دائمة بمهمة الإشراف والمراجعة . وتكون ـ بالتعاون مع الأمانة الفنية ـ مختصة بالاتصال بالعلماء الذين سيشاركون في كتابة الموسوعة في شتى أنحاء الوطن الإسلامي ، وتقديم المادة العلمية لهم وتلقي ردودهم عليها ، وتقوم هذه اللجنة بمراجعة الردود التي تصل إليها مراجعة دقيقة يتم بعدها توزيعها توزيعاً محدوداً على مجموعة من

العلماء لمراجعتها مراجعة نهائية واعتمادها حتى تكون معدة للطبع .

وتقوم اللجنة العلمية الدائمة أيضاً بمهمة تبويب موضوعات الموسوعة وتحديد فصولها لتكون معدة للطبع بصورة نهائية متكاملة .

ويتطلب العمل في هذه اللجنة تفرغاً كاملاً لعدد لا يقل عن اثني عشر من العلماء المتخصصين في مختلف مجالات الفكر الإسلامي .

ومن المفيد أن يكون هناك تكامل بين أعضاء هذه اللجنة من حيث الخبرة بمعرفة اللغات الأجنبية الست المشار إليها .

ولهذه اللجنة أن تستعين بمن ترى الاستعانة بهم من العلماء المتخصصين .

٣ ـ يكون هناك مجلس للأمنـــاء يضم اللجنة العلمية الدائمة والأمانة الفنية والأمانة المالية ويقوم هذا المجلس بالتنسيق بين الأجهزة المختلفة المشرفة على المشروع . ويجتمع هذا المجلس مرة واحدة كل ستة أشهر لدراسة تقرير شامل يقدم إليه عن سير العمل في المشروع ومدى التقدم فيه ووضع الحلول لما قد يكون هناك من مشكلات تعوق سير التنفيذ . . والله ولي التوفيق . (انتهى التقرير) .

[٢] مؤســـسة إسلاميـــة علميـــة عالميـــة :

لقد آن الأوان للتفكير ـ على مستوى العالم الإسلامي ـ في إقامة مؤسسة إسلامية علمية عالمية لا تنتمي بالولاء لقُطْر معين من الأقطار الإسلامية ولا لمذهب سياسي أو فكري أو ديني معين ، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله محمد ﷺ ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية في شتى أنحاء العالم ، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة ، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا في

ميدان الأفكار ، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادي والسياسي ، إذ أن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسة لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه[8] .

والأمر الذي يؤسف له حقاً هو أننا على امتداد العالم الإسلامي بسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون وبكل ما لنا من إمكانات هائلة لا نملك مؤسسة علمية دولية لها الأمكانات العلمية والمادية نفسها التي تملكها المؤسسة الاستشراقية . أليس هذا من الأمور التي تدعو إلى الأسى والحسرة ؟

ويعبر إدوارد سعيد في كتابه عن (الاستشراق) عن هذا الفراغ الهائل في حقل الثقافة العربية والإسلامية والآثار المترتبة عليه فيقول :

« . . . فما من باحث عربي أو إسلامي يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث في المجلات البحثية والمعاهد والجامعات في الولايات المتحدة وأوروبا ، غير أن العكس ليس بصحيح . ليس هناك ، مثلاً ، مجلة رئيسية واحدة للدراسات العربية تصدر في العالم العربي اليوم ، بالضبط كما أنه ليس ثمة من مؤسسة تعليمية عربية واحدة قادرة على مضاهاة أماكن مثل : أكسفورد ، وهارفارد ، وجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلس في دراسة العالم العربي ، دع عنك أي موضوع آخر غير شرقي .

والنتيجة المتوقعة لهذا هي أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين ثم العودة فيها بعد لتكرار القوالب الفكرية (الكليشيهات)

(8) إنتاج المستشرقين لمالك بن نبي ص ٦٢ .

ـ التي ما فتئت أسميها مذهبيات جامدة استشراقية ـ على مسامع جمهورهم المحلي . ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمي أن يستخدم الباحث الشرقي تدريبه الأمريكي ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه ، لأنه قادر على (تدبر) النظام الاستشراقي وفهمه واستخدامه ، أما في علاقته بمن هم أسمى منه مكانة ـ المستشرقون الأوروبيون والأمريكيون ـ فإنه سيبقى (المخبر الذي ينتمي إلى السكان الأصليين) . وهذا هو بحق دوره في الغرب . إذا كان حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد انتهاء تدريبه المتقدم »[9] .

ولا يجوز الخلط بين هذه المؤسسة العلمية المقترحة وبين لجنة « موسوعة الرد على المستشرقين » التي سبقت الإشارة إليها . فلجنة الموسوعة لجنة مؤقتة لإنجاز مهمة محددة ، أما هذه المؤسسة فهي مؤسسة دائمة ولها مهام متعددة .

وقد سبق لنا أن طالبنا في كتاب سابق[10] بضرورة إقامة هذه المؤسسة العلمية . وكان من بين ما قلناه في هذا الصدد :

« . . . إن هناك ضرورة ملحة لإقامة مؤسسة إسلامية عالمية للبحوث العلمية الإسلامية ، تكون بعيدة كل البعد عن أية تيارات سياسية أو دعائية ، ويتكون أعضاؤها من صفوة الباحثين الإسلاميين في شتى المجالات بصرف النظر عن جنسياتهم ، في حدود مائة عضو يتوزعون إلى مجموعات عمل يتوفر كل فريق منها على دراسة قطاع معين من قطاعات الفكر الإسلامي ، وتخطط هذه الصفوة أيضاً للبحوث الإسلامية في جامعات العالم الإسلامي ، فتصل الماضي بالحاضر وتجدد

(9) إدوارد سعيد ص ٣٢٠ .
(10) انظر كتابنا الإسلام في الفكر الغربي ص ١٦ ، ١٧ .

شباب تراثنا وتجنده لخدمة الحياة الإسلامية المتجددة » .

وعبرنا عن الأمل في أن تكون هذه المؤسسة العلمية « أكاديمية حية تشع النور في كل الأرجاء وتغذي المسلم في كل أنحاء العالم بالغذاء الفكري الصحيح ، وتنقل دعوة الإسلام في صفائها ونقائها إلى شعوب الأرض ، ولا تكون تكريراً لأي من الهيئات الإسلامية الحالية التي تجتمع في المناسبات على شكل مؤتمرات لإصدار بيانات لا حياة فيها ولا روح ، ولا أثر لها في حياة المسلم ولا تأثير . والأمل أن تكون تلك الأكاديمية الإسلامية هيئة ربَّانية لا مجال فيها للأهواء . ولا نقصد بذلك أن تكون هيئة كهنوتية أو بابوية فهذا لا مجال له في الإسلام ، ولكننا نريدها هيئة ذات قداسة ، لا بأسماء من يعملون فيها ، ولكن بما تقدمه من خير للناس . ﴿ . . . فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَـاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ (الرعد : ١٧) .

وهكذا يمكن لمثل هذه المؤسسة أن تقف بالمرصاد لكل التيارات المناوئة للإسلام أيا كان مصدرها ، وأيا كانت اتجاهاتها . ومن أجل ذلك لا بد أن يكون لها جهاز لمتابعة كل ما ينشر في العالم من بحوث تتعلق بالإسلام والمسلمين . ويمكن لهذه المؤسسة أيضاً أن تتبنى تياراً للاستشراق يقوم بدراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة .

وقد عبر الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله عن هذا الأمل فقال :

« سيأتي يوم ننقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة ، وسيأتي اليوم الذي يستعمل فيه أبناؤنا وأحفادنا مقاييس النقد التي وضعها هؤلاء الغربيون ، في نقد ما عند هؤلاء الغربيين أنفسهم من عقيدة وعلوم ، فإذا هي أشد تهافتاً ، وأكثر ضعفاً مما يلصقونه اليوم بعقيدتنا وعلومنا . ترى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمي التي يستعملها المستشرقون في نقد

القرآن والسنة ، في نقد كتبهم المقدسة وعلومهم الموروثة ، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوة ؟ وماذا يكون فيها من ثبوت ؟ » .

ثم يقـول الدكتور السباعي أيضاً :

« كثيراً ما أتمنى أن يتفرغ منا رجال للكتابة عن هذه الحضارة (الغربية) وتاريخ علمائها بالأسلوب نفسه الذي يكتب به المستشرقون من تتبع الأخبار الساقطة ، وفهم النصوص على غير حقيقتها ، وقلب المحاسن إلى سيئات ، والتشكيك في كل خير يصدر عن هؤلاء الغربيين . ولو حصل هذا لخرجت منه صورة لهذه الحضارة ولرجالها مضحكة مخزية ينكرها المستشرقون قبل غيرهم . . »[11] .

وفكرة إنشاء اتجاه مقابل للحركة الاستشراقية سبق أن أثيرت في بعض المؤتمرات الإسلامية . ويشير المستشرق « رودي بـارت » إلى ذلك بقوله :

« . . . ولا بأس من أن ننتهز هذه الفرصة فنثير سؤالاً ، ولو من ناحية المبدأ ، هو السؤال عن إمكانية أن ينشأ في الناحية الأخرى ، أي في العالم العربي الإسلامي ، اتجاه للبحث ، شبيه بالدراسات الإسلامية عندنا ، ولكن في الوجهة المقابلة ، يهدف إلى دراسة تاريخ الفكر في العالم النصراني الغربي وتحليله بطريقة علمية . . . وقد دعا الدكتور محمد رحبار في المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في لاهور في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٧م/ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٨م ، بحماس إلى هدف من هذا القبيل ، ولكنه لقي معارضة شديدة »[12] .

(١١) الاستشراق والمستشرقون للدكتور السباعي ص ٦٦ ، ٦٧ .
(١٢) بـارت ص ١٣ .

وعلى أية حال فإن هذه مسألة جانبية لا يجوز أن تشغلنا عن الهدف الأساسي للمؤسسة العلمية المقترحة ، فهي مسألة تعد الآن ـ في نظرنا ـ ترفاً فكرياً لم يحن وقته بعد ، ويمكن التفكير فيها في مرحلة أخرى تالية .

أما الآن فإن هناك أولويات أمام العمل الإسلامي لا بد أن تؤخذ في الاعتبار وتوضع في الحسبان حتى لا نخطىء الطريق الأسمى ، وهو خدمة الإسلام وبناء الحياة الإسلامية على أسس إسلامية متينة والنهوض مرة أخرى دينياً وثقافياً وحضارياً .

[٣] دائـــرة معـــارف إسلاميـــة جديـــدة . . .

ومن بين الأولويات العلمية الملحة مشروع إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة . فلا يجوز أن نظل نقتات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية . فقد تجاوزها المستشرقون وانتهوا منذ بضع سنوات من إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة . وواجبنا نحن المسلمين أن نقوم بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسة ، تقف على الأقل في مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطاً وتنظيمًا وتتفوق عليها علمياً ، وتنقل وجهة النظر الإسلامية في شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء . فكل فراغ فكري لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية ، وربما معادية لأفكارنا ، فلا نلومن إلا أنفسنا .

وينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن دائرة المعارف الإسلامية المقترحة تختلف عن « موسوعة الرد على المستشرقين » . فالموسوعة محدودة في إطار الرد على شبهات معينة أثارها المستشرقون ، ومناقشة هذه الشبهات وتفنيدها . أما

دائرة المعارف الإسلامية المطلوبة فهي عامة وشاملة لكل جوانب الإسلام والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بوجه عام .

وبالإضافة إلى ذلك يمكن إصدار موسوعات أخرى متخصصة مثل موسوعة للفقه الإسلامي وموسوعة للحديث النبوي وموسوعة للتاريخ الإسلامي . . . إلخ . وينبغي أن يكون هناك تنسيق بين المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي بشأن هذه الموسوعات المختلفة حتى لا تتوزع الجهود وتتكرر الأعمال . فهذا التكرير ـ بكل أسف ـ هو ما يحدث الآن بالفعل ، إذ تقوم أكثر من دولة إسلامية وأكثر من جهة علمية بعمل موسوعات للفقه أو الحديث . ومن الخير للإسلام والمسلمين أن تتوحد الجهود وتتوفر الإمكانات على إنجاز أعمال غير مكررة . فهذا التكرير يحبس جهود مجموعة من العلماء لسنوات عديدة . وقد كان من الممكن ـ لو صحت العزائم وصدقت النيات ـ أن تتجه هذه الجهود إلى مجالات إسلامية أخرى تنتج فيها أعمالاً ليس لها نظير في جهة أخرى في العالم الإسلامي .

وهكذا ينبغي أن تخرج هذه الأعمال العلمية الإسلامية عن دائرة التباهي والتفاخر بين الدول الإسلامية . فالتنافس في الخير وفي العلم مطلوب ، ولكن تبديد الجهد والوقت والمال في أعمال مكررة أمر يجب أن نكف عنه فوراً خدمة للدين الذي نؤمن به والذي هو في أمس الحاجة إلى كل دقيقة من وقت علمائه ، من أجل تقديم عمل نافع للأجيال المسلمة التي تنتظر الكثير من علماء المسلمين حتى تستطيع أن تواجه شتى التيارات الفكرية التي تحيط بها من كل جانب .

[٤] جهـــاز عالمي للدعـــوة الإســـلامية . . .

ومن الأمور الملحة أيضاً في مجال العمل الإسلامي ضرورة إنشاء مؤسسة إسلامية تبشيرية عالمية ، وأعني بذلك جهازاً للدعوة الإسلامية في الخارج :

يدعو للإسلام من ناحية ، ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ، ويحمي المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة . ويتطلب العمل الإسلامي أيضاً إصدار سلسلة كتب إسلامية باللغات العالمية الحية تصحح التصورات الخاطئة عن الإسلام في الأذهان ، وتعرض الإسلام بأسلوب علمي يتناسب مع العقلية المعاصرة ، وتقدم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية .

ومن الممكن في هذا الصدد الاستفادة بأفكار وخبرات الشخصيات الغربية الواعية التي اعتنقت الإسلام ، والاتفاق معها على خطتي عمل إحداهما عاجلة والأخرى طويلة الأمد ، لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية في الغرب . وقد أشار المفكر الفرنسي « جــارودي » ـ الذي أسلم حديثاً ـ في محاضرته التي ألقاها في كل من جامعة الملك عبد العزيز بجدة وفي جامعة قطر بالدوحة في أوائل يناير (كانون الثاني) ١٩٨٣م بعنوان (الإسلام وأزمة الغرب) ، أشار إلى الحاجة الملحة لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية في الغرب ، وتحدث عن بعض الأفكار في هذا الصدد في أثناء حديثه عن كشف أساليب التضليل الصهيوني . فكان مما قال :

« إن عملنا فيما يتعلق بشرح مفهوم الصهيونية وأهدافها وطرق عملها يجب ألا تقتصر على الجانب السياسي فقط ، بل يجب أن يشمل الجانب الروحي أيضاً . فعلينا أن نقاوم العنصرية القبلية بكونية الإسلام ، وإن هدفنا الأخير هو أن نظهر للغربيين كيف أن الإسلام هو الوحيد اليوم القادر على فتح طريق أمام المستقبل خارج النمطين الأمريكي الرأسمالي والاشتراكي السوفييتي اللذين آلا إلى طريق مسدود ، وأن يجنبنا حرباً نووية قد تؤدي بالكون إلى الهلاك المحقق . . . إنني أعتقد أن وعيي بأن هذا الضلال الغربي المؤدي بالعالم إلى الهلاك وفي الوقت

نفسه شعوري بإمكانات الإسلام قد هداني إلى تأليف كتابي الأخير (تباشير الإسلام) ، وأن أضع في الخط الأول المعركة ضد التضليل الصهيوني وأن أعتنق الإسلام » .

ويرى « جــارودي » ضرورة الاستعانة في هذا الصدد بالعديد من الوسائل عن طريق الحضور المستمر في وسائل الإعلام الغربية ، ونشر الكتب المبسطة التي تكون في متناول الجميع ، أو تنظيم المعارض وإقامة المهرجانات وغيرها مما يساهم في انتشار الإيمان وثقافة الإسلام . ويرى أيضاً تحويل الجمعية الإسلامية بجنيف إلى مركز للإشعاع الديني والثقافي ، وإقامة مركز إسلامي في المنطقة الباريسية .

ويقــول أيضــاً :

« . . . نحن بصدد إعداد كتاب عنوانه : (في الإسلام كل الفنون تؤدي إلى المسجد ، وكل المساجد تؤدي إلى الصلاة) . . . وعن طريق تنوع الثقافات والفنون التي استوعبها الإسلام نحاول إبراز معاني وحدة وشمولية الإيمان . وأعتقد أن هذا يمثل بالنسبة لمسلمي الغرب ـ الذي أعد واحداً منهم ـ عملاً لا بد من إنجازه .

إن في مقدور الإسلام مرة ثانية أن يحيي من جديد الأمل في مجتمعاتنا الغربية التي حطمتها الانفرادية وأنموذج النمــو الكمي الذي يقود العالم إلى الانتحار » .

وقد أشرت هنا إلى جارودي كأحد الأمثلة للشخصيات الغربية التي يمكن التعاون معها على أساس أن الغربي المسلم الذي ولد ونما وعاش في الغرب وتثقف بالثقافة الغربية أقدر من غيره على فهم نفسية الغربيين وما يشعرون به

من أزمات روحية ، وما يتطلعون إليه من حلول ، وأقدر أيضاً على معرفة الأساليب التي يمكن أن يكون لها تأثير في نفوسهم وعقولهم .

والموضوع في حاجة إلى بحث مستفيض ودراسة واعية وتخطيط سليم . ولعلنا نتخذ العبرة من النشاطات السرية والمكشوفة لمؤسسات التنصير في شتى أنحاء العالم والتي توجه معظم نشاطها إلى تنصير المسلمين ، مستغلة ما يعانيه كثير من التجمعات الإسلامية في أماكن كثيرة من بلاد العالم الإسلامي من جوع وحرمان ومرض وجهل . فهل نترك هؤلاء المسلمين يسقطون يوماً بعد يوم في أيدي بعثات التنصير ونحن نتفرج مكتفين بأضعف الإيمان ؟

لقد صادفت في أثناء إقامتي في ألمانيا في أواسط الستينات أنموذجين مؤلمين لكل نفس مسلمة : الأنموذج الأول كان قسيساً أندونيسياً ذكر لي أن جده كان مسلماً ومات مسلماً . ومن الواضح أن هذا القسيس كان من نتاج التبشير النصراني النشط في ذلك البلد المسلم : أندونيسيا . أما الأنموذج الثاني فقد كان أحد الأشخاص الأوروبيين الذين كانوا يعدون لمهمة التنصير في باكستان . وقد ذكر لي صراحة وبلا مواربة أنه سيكون أسعد الناس عندما يستطيع تحويل مسلم إلى النصرانية في هذا البلد المسلم .

إن وراء هذه النماذج الفردية مؤسسات تنصيرية ضخمة . وتقوم هذه المؤسسات بين الحين والحين بعقد المؤتمرات التنصيرية العالمية لدراسة أفضل الخطط وأنجع الوسائل لإنجاح مشروعات تنصير المسلمين في شتى بلاد العالم الإسلامي ، وتتلقى الدعم المالي الهائل من مختلف الطوائف النصرانية ورجال الأعمال النصارى في أوروبا وأمريكا . وقد كان أحدث هذه المؤتمرات مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين الذي عقد في (كلورادو) عام ١٩٧٨م .

[٥] ترجمة إسلامية لمعاني القرآن الكريم :

إنه لأمر يدعو إلى الدهشة والغرابة أن يترك المسلمون كتابهم المقدس نهباً لكل من هب ودب لترجمته ولا يحركون ساكناً أمام عشرات الترجمات للقرآن في كل لغات العالم . وفي كل لغة من اللغات الأوروبية نجد العديد من الترجمات القديمة والحديثة .

وفي الجانب الآخر يهتم النصارى بترجمة كتابهم المقدس إلى كل لغات البشر . وقد اطلعت على ورقة عمل مقدمة من « وليم د . رايبيرن William D.Reyburn » إلى مؤتمر كلورادو ـ الذي أشرنا إليه ـ عن ترجمات الكتاب المقدس إلى لغات العالم المختلفة ، وعن الترجمات الموجهة على وجه الخصوص للمسلمين في شتى لغاتهم .

ويتضح من هذه الورقة مدى الجهد الكبير الذي يبذل في سبيل توصيل تعاليم الكتاب المقدس إلى كل الناس عن طريق مئات الترجمات التي قامت بإنجازها الهيئات النصرانية التبشيرية . ولم نسمع عن ترجمات للكتاب المقدس قام بها أناس من غير النصارى .

أما نحن فقرآننا كلأ مباح لكل من يريد ترجمته وتحريفه ، وشغلنا عن ذلك بمناقشات أضعنا فيها الكثير من الوقت حول جواز أو عدم جواز ترجمة القرآن . وقد كان الشيخ محمد مصطفى المراغي من أشد المتحمسين لموضوع ترجمة معاني القرآن عندما كان شيخاً للأزهر . وتقدم بمذكرة إلى مجلس الوزراء المصري في عام ١٩٣٦م يقترح فيها ترجمة رسمية يقوم بها الأزهر بمساعدة وزارة المعارف ، وذلك حتى يمكن أن تقف هذه الترجمة الرسمية في وجه الترجمات العديدة المنتشرة في العالم شرقاً وغرباً ، والمليئة بالأخطاء . وقد وافق مجلس الوزراء على ذلك في ١٦ ابريل (نيسان) ١٩٣٦م .

ولكن الشيخ الظواهري وقف على رأس المناهضين لهذا المشروع ورأى

« أن الطريق السليم لمناهضـــة هذه الترجمات غير الصحيحة هو مصادرة هذه الترجمات وطلب جمعها وإتلافها من جميع حكومات العالم »[13] .

وهذا مطلب غريب لا يمكن تحقيقه بأي حال من الأحوال . وهكذا وئدت الفكرة في مهدها ، ولم نفعل شيئاً من أجل المسلمين في شتى أنحاء العالم من غير الناطقين بالعربية ، والذين يتحدثون مئات اللغات المختلفة في كل قارات العالم .

إن العرب لا يشكلون أكثر من نسبة ١٥٪ من تعداد المسلمين في العالم ، فهل يترك باقي المسلمين من غير العرب تحت رحمة ترجمات فاسدة للقرآن قام بها أناس غرباء عن دينهم ؟

لقد آن الأوان لإعداد ترجمات إسلامية مقبولة لمعاني القرآن الكريم باللغات الحية ، نسد بها الطريق أمام عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات والتي قام بإعدادها بعض المستشرقين والمنصرين وصدورها في غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الإسلام .

ومن واجبنا أيضاً أن نقوم باختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها إلى اللغات الحية لتكون مع ترجمة معاني القرآن الكريم في متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية ، وفي متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الإسلام من منابعه الأصلية .

[٦] تنقيــــة التراث الإســـلامي . . .

تراثنا العربي الإسلامي يعد أغنى تراث في العالم ، وهو تراث نعتز به ولا يجوز لنا أن نفرط فيه . ونعني بالتراث كل إنتاج بشري للمسلمين في شتى مجالات الأدب أو اللغة أو الفكر أو الدين أو العلوم بصفة عامة أو الفنون

(١٣) راجع : ترجمة المعاني القرآنية للدكتور محمد السنباطي . ص ١٤٥ ، ١٤٩ ـ الدوحة (بدون تاريخ) .

المختلفة . وتنبع أهمية هذا التراث من أنه يمثل الإطار الذي يحدد للعرب والمسلمين هوية معينة وصبغة متميزة ، ويمثل الخلفية الفكرية لتصوراتهم وأفهامهم لكل مجالات الحياة . ويعطي لهم الركيزة الأساسية للأيديولوجية الخاصة التي يتميزون بها بين الأمم . وكل ذلك مرتكز بطبيعة الحال على أسس إسلامية راسخة .

والاهتمام بهذا التراث لا يعني مجرد التغني بالأمجاد أو اجترار الذكريات وإنما يعني البحث عن الجذور الحقيقية للشخصية العربية الإسلامية واستعادة الأمة العربية الإسلامية للثقة بنفسها وأمجادها وقدرتها على البناء والتطور الحضاري ، حتى تسير بخطى ثابتة على أرض صلبة مستندة على رصيد حضاري ضخم .

وهكذا لا يعني الاهتمام بالتراث التقوقع والانعزال عن التطورات العلمية والحضارية في عالم اليوم . فالتراث نفسه يعطينا المثل الواضح . فالمسلمون عندما بنوا حضارتهم لم ينعزلوا وإنما انتفعوا بكل ما كان قائماً في ذلك الزمان من علوم ومعارف على اختلاف أنواعها . فالتراث يجدد نفسه بصفة مستمرة عن طريق مواكبته لروح العصر والاستفادة إلى أقصى حد من كل الوسائل والأساليب الحديثة التي تفيد في تنميته وتطويره . وكل ذلك بما لا يتعارض مع مقوماته الأساسية .

ولكن تراثنا العربي الإسلامي ـ شأنه شأن كل جهد بشري ـ يشتمل على الغث والسمين ويتضمن جوانب إيجابية وأخرى سلبية ، الأمر الذي يعطي الفرصة لبعضهم في تغليب الجانب السلبي على الجانب الإيجابي في بعض الأحوال .

والواجب الإسلامي يقتضينا أن نعمل على تنقية هذا التراث العظيم وغربلته وإزالة الغيوم التي تحجب عنا إشراق شمسه ، حتى يكون غذاء

فكرياً صالحاً يمد المسلم بأسباب القوة التي تعينه على النهوض مرة أخرى بعزم جديد وتصميم أكيد .

وكلنا يعلم أن هذا التراث يشتمل على الكثير من الخرافات والأوهام والاسرائيليات . وعلى الرغم من أن الإسلام لا يتحمل وزر ذلك كله ، فإن المستشرقين يستخدمون تراثنا بكل ما فيه ، ويعمد الكثيرون منهم إلى البحث عن تلك الجوانب السلبية والتركيز عليها وتفصيل القول فيها ، ظناً منهم أنهم بذلك قد عثروا على نقاط الضعف في الإسلام ذاته . ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى مثال واحد ـ من بين أمثلة عديدة لا تحصى ـ وهو قصة الغرانيق المذكورة في بعض كتب التراث ، وهي قصة يعلم الله أن الإسلام بريء منها . ولكن المستشرقين قد ركزوا عليها وسلطوا عليها الأضواء من كل جانب واعتبروها نقطة ضعف في التوحيد الإسلامي الذي كان ـ في زعمهم ـ على استعداد ، ولو للحظة واحدة ، أن يتخلى عن تشدده مجاملة لمشركي مكة . فإذا اتهمنا المستشرقين بالتجني ـ وهم متجنون بالفعل ـ حق لهم أن يردوا الاتهام قائلين : نحن لم نخترع شيئاً من عندياتنا ، أليست القصة واردة في بعض مصادركم المعتمدة ؟

وتنقية التراث يمكن أن يوكل أمرها إلى المؤسسة العلمية الإسلامية التي سبق أن أشرنا إليها ، على أن يكون لديها في هذا الصدد خطة عمل تراعي أيضاً الأولويات الملحة ، فيما يتعلق بتحقيق كتب التراث ونشرها .

[٧] الحضـــور الإســـلامي في الغـــرب . . .

من الملاحظ أن الحضور الإسلامي في المؤسسات العلمية في الغرب ضعيف جداً إن لم يكن معدوماً ، وليست هناك أهمية إسلامية كبيرة للكثيرين من أبناء العالم الإسلامي الذين يساعدون في التدريس في تلك المؤسسات

نظراً لأنهم لا يستطيعون ـ إلا فيما ندر ـ أن يصرحوا بوجهات نظر تتعارض مع وجهات النظر الاستشراقية حول الإسلام . والغالبية منهم يجارون التيار السائد وإن لم يفعلوا فقدوا عملهم . . فهم مكبلون بقيود الوظيفة هناك . وعلى الرغم من كثرة عددهم مثلاً في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية فإنه ليس لهم نفوذ يذكر « فإن القوة ضمن النظام (في الجامعات والمؤسسات وما إليها) هي حصراً تقريباً في أيدي غير الشرقيين ، رغم أن نسبة الشرقيين إلى غير الشرقيين بين الأساتذة المقيمين لا تعطي الأفضلية لغير الشرقيين إلى هذه الدرجة الجارفة »(١٤) .

ولسنا هنا نريد أن نقلل من شأنهم أو نغض من أقدارهم ، ولكننا نعبر فقط عن الموقف الصعب والوضع الحرج الذي يتحركون في حدوده .

ومن أجل ذلك نقترح سبيلاً آخر لتقوية الحضور الإسلامي في المؤسسات الأكاديمية في الغرب ، وذلك بمحاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والإسلامية في الغرب عن طريق الاتفاقات الثقافية التي تعقد بين بلدان العالم الإسلامي ودول أوروبا وأمريكا ، وذلك بإرسال أساتذة أكفاء من الأقطار الإسلامية إلى معاقل الاستشراق للتدريس فيها . وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الغربية عن الإسلام بالعمل العلمي الدؤوب وليس عن طريق الشعارات الجوفاء . وأعتقد أن هناك الآن بعض الجامعات في أوروبا وأمريكا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك(١٥) .

---

(١٤) إدوارد سعيد ص ٣٢١ .

(١٥) وقد عجبت اشد العجب عندما قرات ما ذكره نجيب العقيقي (٣/ ٦٠٥) من أن بعض الدول العربية كانت قد سعت إلى إنشاء كرسي للغة العربية في جامعة سيدني باستراليا ، فحالت نفقاته التي تبلغ خمسة عشر الف جنيه بينها وبين إنشاء هذا الكرسي ، في حين ان هبات الأفراد في امريكا لكرسي اللغة العربية في جامعة هارفارد تبلغ مائتي الف دولار ، وان مؤسسة كارنيجي قد ساعدت بمبلغ خمسة وثلاثين مليوناً من الدولارات للمؤسسات الاستشراقية ، وذلك فضلاً عن الميزانية المعتمدة من الحكومات .

ومن ناحية أخرى يمكن إنشاء معاهد أو مراكز بحوث إسلامية في أوروبا وأمريكا على غرار المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت ، على أن يكون لهذه المراكز منشورات علمية مثل معهد بيروت المشار إليه . وتستطيع هذه المعاهد أن تزود الجهات العلمية في الغرب بالمعلومات الصحيحة وتسهم بما تنشره من بحوث علمية رصينة بلغات تلك البلاد ، وما تقيمه من ندوات ولقاءات ومحاضرات ـ تسهم في تصحيح التصورات الخاطئة ـ عن الإسلام في أوروبا وأمريكا والتخفيف من غلواء العداوة للإسلام في الغرب بصفة عامة .

[٨] الحـــوار مع المستشرقين المعتدلين . . .

من المفيـــد جداً أن يكون للمؤسسات العلمية الإسلامية صلات بالمستشرقين المعتدلين تهدف إلى إجراء حوار مستمر معهم وعقد لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين .

وليس هناك شك في أن مثل هذا الحوار سيكون له أثره الإيجابي على كلا الجانبين . فمن ناحية سيكون دعمًا لمواقف هؤلاء المستشرقين وتقوية لجانبهم وتشجيعاً لاتجاهاتهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة في يوم من الأيام تياراً عاماً في الغرب يكون له تأثيره الفعال في تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام في العالم الغربي .

ومن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم وتقليدهم لهذه الأفكار وإعادتهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة .

[٩] دار نشـــر إسلاميـــة عالميـــة

لقد أصبحت الحاجة ملحة إلى إنشاء دار نشر إسلامية عالمية تقوم بنشر المطبوعات الإسلامية بكافة اللغات ، حتى لا تظل المطبوعات الإسلامية باللغات الأجنبية تحت رحمة الناشر في الغرب . وأقرب الأمثلة على ذلك أن المفكر الفرنسي المسلم « جارودي » يجد الآن صعوبة في نشر كتاب يفضح فيه ادعـاءات الصهيونيـة بعنوان (ملف إسـرائيل بـين أحلام وأكـاذيب الصهيونية) . والمعروف أن دور النشر في فرنسا كانت تتلقف كل ما يكتبه جارودي لتنشره على نطاق واسع في أوروبا وأمريكا . ولكن إسلامه وتعاطفه مع قضية العرب والمسلمين قد غير الوضع .

ويمكن أن تقوم هذه الدار المقترحة أيضاً بإصدار صحف ومجلات إسلامية بلغات مختلفة ، وتكون هذه الصحف والمجلات وسيلة للربط بين المسلمين في كل مكان : تعمل على تجميعهم وتوحيد صفوفهم وتعريفهم بقضايا الإسلام وإعلامهم بأخبار بعضهم بعضاً من مصادر صحيحة . وحبذا لو استطاع المسلمون إنشاء وكالة أنبـاء إسلامية عالمية تستطيع أن تثبت وجودها بصورة مشرفة ، وتكون هي المصدر الذي يستقي منه الغرب معلوماته عن العالم الإسلامي وليس العكس ، فنحن نستقي حالياً معلوماتنا عن العالم الإسلامي من وكالات الأنباء الغربية التي لا تتحرى الموضوعية في غالب الأحيان في عرضها لأخبار العالم الإسلامي . فوسائل الإعلام الغربية بصفة عامة تتخذ موقفاً سلبياً إزاء الإسلام وتساعد على تشويه صورته ، انطلاقاً من النظرة الغربية العامة للإسلام والتي تتركز أساساً على المواقف الاستشراقية التي ترسخت في الأذهان على مدى قرون عديدة[١٦] .

(١٦) انظر كتابنا : الإسلام في الفكر الغربي ص ٩ .

وبعـــــــــــد ...

فقد كانت تلك بعض المقترحات التي يمكن أن يكون لها أثرها في مواجهة الاتجاهات السلبية المعادية للإسلام في الحركة الاستشراقية . ولعل غيري يستطيع أن يضيف إليها وسائل أخرى فعّالة . فلست أدّعي أنني أحطت بكل الجوانب ووضعت الحلول لسد كل الثغرات . فما قلته ليس هو نهاية المطاف وإنما هو جهد المقل الذي يعرف حدوده . والمهم في هذا الصدد هو توفر إرادة التنفيذ لدى الجهات الإسلامية المعنية ، وتوفر الرغبة في العمل لدى علماء المسلمين . وقبل هذا كله لا بد من توفر الإدراك الواعي للمشكلة وما لها من أبعاد مختلفة . فمثل هذا الإدراك هو البداية الصحيحة نحو الاتجاه السليم لمواجهة مشكلاتنا الإسلامية الراهنة .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يثير انتباه القارىء الكريم إلى التأمل والتفكير في أبعاد الحركة الاستشراقية وأهدافها ومراميها بغية الوصول إلى اتخاذ المواقف الصحيحة ، فسيكون بذلك قد نجح في تحقيق الهدف من تأليفه .

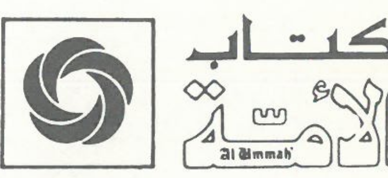
والله من وراء القصـد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفهـــــــــــرس

الموضـــــــــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الفصل الثالث :



كتاب الأمة
Al Ummah

هاتف : ٤١١٣٠٠
تلكس : ٤٩٩٩ الأمة د.هـ
برقيا : الأمة الدوحة
ص.ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

ثمن النسخة

البلد	الثمن
قطر	٥ ريالات
السعودية	٥ ريالات
الامارات	٥ دراهم
عمان	٥٠٠ بيسة
البحرين	٥٠٠ فلس
الكويت	٥٠٠ فلس
العراق	٥٠٠ فلس
اليمن الشمالي	٥٠٠ فلس
اليمن الجنوبي	٥٠٠ فلس
الأردن	٥٠٠ فلس
سورية	٥٠٠ قرش
لبنان	٥٠٠ قرش
مصر	٥٠٠ مليم
ليبيا	٥٠٠ درهم
السودان	٥٠٠ مليم
تونس	٥٠٠ مليم
الجزائر	٥ دنانير
المغرب	٥ دراهم

○ في باقي دول آسيا وافريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .

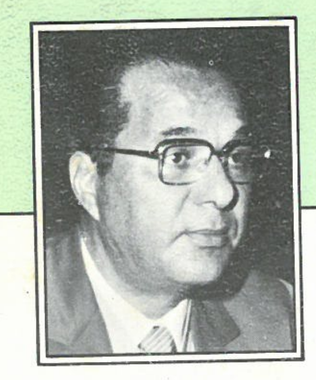
○ في الأمريكتين وأوربا واستراليا وباقي دول العالم دولاران أمريكيان أو ما يعادلهما .

يطلب من وكلاء توزيع مجلة الأمة

الكويت : يطلب من دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ٢٠١٤٦

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
١١٠/ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

مطابع الدوحة الحديثة



الدكتور محمود حمدي زقزوق

- ولد بمحافظة الدقهلية في مصر في ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٣٣م .
- تخرج في جامعة الأزهر عام ١٩٥٩م وحصل على الدكتوراه من جامعة ميونيخ بألمانيا عام ١٩٦٨م .
- أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعتي الأزهر وقطر ، ووكيل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر .
- له عدد من المؤلفات والأبحاث في مجالات الفلسفة الإسلامية والفلسفة العامة والأخلاق والدراسات الاستشراقية .

■ الاستشراق كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي ، بل يمكننا القول : إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع ...

■ إن التزام الموضوعية هو دائماً في صالح الإسلام بوصفه دين الله الحق الذي لا يُخشى عليه من اية تيارات فكرية مناوئة أياً كان مصدرها ...

■ كان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق واوديته من اجل فرض السيطرة الاستعمارية عليه وإخضاع شعوبه وإذلالها .

■ نحن نرفض منهج المستشرقين في دراسة الإسلام ، لأنه منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبي ، ولأنه منهج يقصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية ، ويحاول ان يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية ...

■ الغريب ان الهيئات العالمية مثل اليونسكو - وهي هيئة دولية تشترك فيها الدول الإسلامية تستكتب المستشرقين بوصفهم متخصصين في الإسلاميات للكتابة عن الإسلام والمسلمين في الموسوعة الشاملة التي تصدرها عن تاريخ الجنس البشري وتطوره الثقافي والعلمي .

مطابع الدوحة الحديثة